الفصل الثامن

العلاقة بين الإلحاد والفلسفة

العلاقة بين الإلحاد والفلسفة

عدم الإلمام الكافي بعلم الفلسفة مع تنامي الرعب من الإلحاد ينتج عنه ربط خاطئ بين الفلسفة والإلحاد من الناحية الشكلية، غير أن هذا الربط له ما يبرره تاريخيًّا فقط، إذا علمنا أن أول ظهور للإلحاد كان على يد الفيلسوف اليوناني (ديمقريطس الأبديري) في القرن الرابع قبل الميلاد، حيث كان أول من قال: إن خلق العالم جاء نتيجة للضرورة دون تدخل إله، وعلى الرغم من أن (كارل ماركس) جاء متأخرًا عنه بكثير (في القرن التاسع عشر الميلادي) إلا أنه طار فرحًا بموقف ديمقريطس، ووصفه بأنه (أول عقل موسوعي بين اليونانيين)، وقال عنه (لينين)[1]: «إنه ألمع دعاة المادية في العالم القديم»[2]، لكن هذا النوع من الإلحاد بقي محدودًا جدًّا منذ نشأته، ولم يبلغ ذروته عالميًّا إلا في عصر الشيوعية في القرن العشرين، عندما نشأت أنظمة قمعية سياسية تتبناه بقوة السلاح، وتجبر الناس بالحديد والنار والسجون على رفض الدين تحت طائلة الخيانة العظمى، لتكون عقوبة الإعدام أو الإبادة والتهجير القسري لكل من يرفضه، وعلى رأس تلك الدول الدموية كان الاتحاد السوفيتي البائد، ويمكن القول: إن الإلحاد بلغ أوج انتشاره في الفترة ما بين ١٧٨٩ و١٩٨٩م، ولم تقم له قائمة مؤسسية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي ولله الحمد.

لقد نبت (الإلحاد) في أوروبا التي كانت ولا تزال حاضنة له في العالم، فقد نشأ فيها لظروف خاصة بها، ثم انتقل منها إلى بلاد المسلمين الخالية من تلك الظروف إلى حد كبير جدًّا، وانتقلت العدوى أيضًا إلى بلاد المشرق والصين وغيرها، ومن أهم أسباب ظهوره اصطدام العلم الحديث المؤيد بالتجارب والبراهين المقبولة عقلًا بالموروث الذي كان

---

(١) فلاديمير لينين Wladimir Lenin (١٨٧٠م- ١٩٢٤م) الموافق (١٢٨٧- ١٣٤٢هـ) مفكر سياسي ومؤسس الدولة البلشفية في روسيا ولد بمدينة سيمبرسك بروسيا كان جده قد تحول من اليهودية إلى النصرانية درس القضاء وتفرغ للسياسة تزعم الحزب البلشفي وتزعم الثورة الروسية عام ١٩١٧م: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الثاني، ص٤٠٠) وكذلك انظر: (مدخل إلى الفلسفة السياسية، محمد وقيع الله، ص٣١٤).

(٢) مقدمة الدكتور محمد عمارة لكتاب وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص٣.

يعرف بمصدر المعرفة المقدس جدًّا عند رجال الدين، المزدري جدًّا عند أهل العقول، وقد كان إلى نهاية العصور الوسطى مقصورًا على الكتاب المقدس المحرف، مضافًا إليه بعض آراء (أرسطو) و(بطليموس)[1] القديمة حول الفلك، والويل كل الويل لمن يبتدع شيئًا مخالفًا لها، فكانت الأرض عندهم ثابتة، والأجرام تدور حولها كالشمس والقمر، والعالم قد خلق عام ٤٠٠٤ قبل الميلاد، وستكون القيامة عام ٤٠٠٤ من الميلاد وفق حسابات خرافية أرادوا من خلالها تثبيت ميلاد المسيح ليصبح في منتصف عمر الدنيا! وأن الواسطة بين الله والناس هم رجال الكنيسة وحدهم، فهم الذين يقبلون التوبة والغفران ودخول الجنة[2]!

هذه الحقبة المأساوية المظلمة في أوروبا الغارقة في الجهل كانت نهايتها على يد أربعة من أبرز علماء عصر النهضة، وهم (كبربيكوس[3] الذي أثبت بالحسابات الرياضية أن الأرض تدور حول الشمس، وليس العكس، والعالم الفلكي (جاللیلو)[4] الذي باستخدام تلسكوبه الفضائي أيد ما وصل إليه كوبربيكوس، ونظر من خلال تلسكوبه إلى أفق العلم والمعرفة الجديد، فقامت قيامة الكنيسة ضدهما، واعتبرتهما سحرة ومشعوذين، فناصبتهما العداء، على الرغم من أن (جاللیلو) كان مؤمنًا بالله ومعتقدًا أن الله (كتب قوانين الرياضة) بيده لدقتها على حد وصفه، لكن الضربة العلمية القاضية جاءت على يد العالم الفيزيائي الشهير (إسحاق نيوتن) الذي بقوانينه الثلاثة للحركة وقانون الجاذبية، توج قواعد العلم الحديث الذي فسر ما كان دين القوم آنذاك قاصرًا

---

(١) بطليموس Ptolemy (٨٥- ١٦٥م) عالم فلكي ورياضي وجغرافي ولد ومات بمصر ويُعدّ من أشهرعلماء التاريخ القديم كانت مفاهيمه سائدة إلى عصر القرون الوسطى: (رحلة العقل، شريف، ص١٤).

(٢) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص٢٢.

(٣) نيكيولاس كوبرنيكوس Nicolaus Copernicus (١٤٧٢- ١٥٤٣م) الموافق (٨٧٦- ٩٥٠هـ) عالم رياضيات وطبيب وفلكي بولندي وهو أول من وضع نظرية دوران الأرض حول الشمس اتخذ من علم الفلك هو فأصبح من أعظم علماء عصره: (رحلة العقل، شريف، ص١٦).

(٤) جاللیو جاللي Galileo Galilei (١٥٦٤- ١٦٤٢م) الموافق (٩٧١- ١٠٥٢هـ) فلكي وفيلسوف ورياضي إيطالي شيد المنهج التجريبي في الفلسفة تعرض للمحاكمة عام ١٦١٦م على قوله: إن الأرض تدور حول الشمس نجا منها بسبب صداقته للكاردينال مافيو بالرباريني: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الثالث، ص٩١).

جدًّا عن تفسيره، وهؤلاء الثلاثة مع (يوهانز كيبلر)[1] هم الأربعة الأكثر شهرة من البشر الذين يُعدّون مفتاح العلم الحديث، وبهذا التطور العلمي الهائل على يد أشخاص لا يحسبون على رجال الدين بدأ الناس يزهدون في الدين الموروث شيئًا فشيئًا، معجبين بالحضارة العلمية العملية مبتعدين عن هرطقة القساوسة وتحاريفهم مهما أضفوا عليها صفة التقديس حتى تجاوز هذا الشعور ليصل إلى العزوف عن الدين وكل ما له صلة به، وكان ذلك مهدًا مثاليًّا لنشوء الإلحاد فيها[2].

لقد كانت الفلسفة في بدايتها حكمًا وأخلاقًا ومواعظ عامة هادئة في عصر (سقراط وأفلاطون وأرسطو)، ولا تخلو من انسجام وتناغم إلى حد ما بين الإيمان والاعتقاد، وحتى في أوج عصرها في أواخر القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، تربع على عرشها فلاسفة كبار مؤمنون بصورة عامة مثل (ديكارت)، و(مالبرانش)[3]، أما الفيلسوف الألماني (إيموائيل كانت)، فقد كان في مقدمة الفلاسفة المؤمنين في القرن الثامن عشر، وهو صاحب نظرية أن الإيمان بالغيبيات يجب أن يبنى على أساس أخلاقي، وليس على أساس حسي فقط، بل هو مبتكر مفهوم التعالي فوق أي تجربة ممكنة (Transcendentalism) ويعني بذلك ارتقاء الوعي بالسلم المعرفي متخطيًا كل تجربة ومفهوم قبلي[4].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الفلاسفة على الرغم من تباين آرائهم، هم من أكثر الناس عرضة للتشويه والإحراق غير المنصف أحيانًا من قبل عامة الناس وأحبارهم ورهبانهم لما يبتدعونه عادة من جديد على الأعراف المألوفة، وما يطرحونه من رأي

---

(١) يوهانز كيبلر Johannes Kepler (١٥٧١- ١٦٣٠م) الموافق (٩٧٩- ١٠٣٩هـ) عالم رياضيات وفلكي ألماني ومن أشهر من أسهم في الثورة العلمية الفلكية في القرن السابع عشر الميلادي:
(The scientific Revolution, Johannes Kepler,The war on Mars, Cameron & Stinner, Page 4).

(٢) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص٢٥.

(٣) مالبرانش Nicolas Malebranche (١٦٣٨- ١٧١٥م) الموافق (١٠٤٧- ١١٢٧هـ) فيلسوف فرنسي صوفي متدين من أنصار رينيه ديكارت اتخذ من القديس أوغسطين أستاذه الأكبر من أشهر كتبه (البحث عن الحقيقة): (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الثاني، ص٤٢٩).

(٤) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص١٤١.

شجاع ليس بالضرورة أن يكون محل تقبل من الناس، وخاصة أصحاب المصالح الذين يشعرون بتهديد مباشر من وقع أفكار الفلاسفة التي تدعو إلى العدل والمساواة والحريات واسترداد الحقوق من مخالب الإقطاعيين ورجال الدين المستأثرين بكل شيء دون سواد الناس.

أما ربط الفلسفة بالإلحاد من الناحية الموضوعية فهو غير صحيح على إطلاقه، مع التسليم بوجود علم الفلسفة كعلم قائم بذاته وله رواده عبر التاريخ، لكن الفلسفة بوصفها علمًا متكاملًا ليست بيئة للإلحاد الذي لم يكن أبدًا نتيجة التعمق بعلم المنطق وعلم الكلام، لكن قليل الفلسفة يؤدي إلى اضطرابات وشكوك قد تؤدي أحيانًا إلى الإلحاد، ولقد أصاب الفيلسوف الإنجليزي (فرانسيس بيكون) كبد الحقيقة عندما قال: «إن جرعة ضئيلة من الفلسفة قد تميل بذهن الإنسان الى الإلحاد، غير أن التعمق في دراسة الفلسفة يلقي بالإنسان في أحضان اليقين»[1]، ويقول أبوحامد الغزالي: «ليتبين لهؤلاء الملاحدة المقلدين اتفاق كل مرموق من الأوائل والأواخر على الإيمان بالله واليوم الآخر، لم يذهب إلى إنكارهما إلا شرذمة يسيرة من ذوي العقول المنكوسة، ليكف عن غلوائه من يظن أن التجمل بالكفر تقليدًا يدل على حسن رأيه، إذ يتحقق أن هؤلاء الذين يتشبه بهم من زعماء الفلاسفة ورؤسائهم براء مما قذفوا به من جحد الشرائع، وأنهم مؤمنون بالله ومصدقون برسله، وأنهم اختبطوا في تفاصيل ما بعد هذه الأصول)[2].

*****

الإلحاد دخيل على الفلسفة

لو تتبعنا جذور الإلحاد لوجدناه توجهًا هامشيًّا طارئًا على الخط الفلسفي العام، ولم يكد يذكر حتى ترعرع في القرن الثامن عشر الميلادي، في وقت أفول نجم الفلسفة وطغيان رجال الدين المتحالفين مع الإقطاعيين لنهب لقمة عيش الناس، والحقيقة أن

(١) ملاحدة من بلدي! محمد العوضي منتدى التوحيد قسم الحوار عن الإسلام الشبكة العنكبوتية.
(٢) تهافت الفلاسفة، الغزالي، (مرجع سابق)، ص١٢.

الإلحاد مرتبط بالخرافة والأساطير المزورة، والنفور من الدين في أوروبا، فهو في واقع الأمر نفور من الخرافة والدجل، وليس نفورًا من الدين الصحيح المغيب أصلًا، حتى قال إيبقور[1] (زعيم الإيبقوريين)[2]: «إن عدم الإيمان بالدين المألوف والمعتقدات الدينية، أسلم بكثير من الإيمان بها»[3]، وكل من جادل ملحدًا أدرك أن الإلحاد يُوجد عند استبدال صوت العقل بالمشاهدة فقط، يقول عباس العقاد: «أنا لكي ألحد، يجب أن أقوم بإلغاء عقلي»، وقال (ستروبل)[4] الملحد سابقًا: «أدركت أساسًا أنه لكي أظل ملحدًا يجب أن أومن أن لا شيء ينتج كل شيء، العدم يعطي الحياة، العشوائية تنتج الدقة، الفوضى تنتج المعرفة، اللاوعي ينتج الوعي، اللامنطق ينتج المنطق، هذه الخطوات الإيمانية كانت كبيرة بالنسبة إلي خاصة في ضوء القضية المؤكدة لوجود الله»[5]، فيا ليت قومهم يعلمون.

إن نظرة عابرة في تاريخ الفيلسوف (أوجست كونت)، بوصفه أشهر ملحد في القرن التاسع عشر ومن أشد الناس نفورًا من الدين، تكشف أنه نشأ في مرحلة عزوف أوروبا عن اللاهوت والميتافيزيقيا والفلسفة، وانغماسها بالعلم التجريبي ومنهجيته، ولم يدم عزوف (كونت) عن الأديان طويلًا، فقد أنهكه الفراغ الروحي، وبحث في نهاية حياته عن دين ليعتنقه، فابتكر دينًا توافقيًّا أطلق عليه (دين الإنسانية)، أي إنه لجأ إلى

---

(١) إيبقور Epicurus (٣٤١ ق. م- ٢٧٠ ق. م) فيلسوف اللذة يراها غ الحياة السعيدة هاجر إلى أثينا واستقر فيها عرفت مدرسته فيما بعد بالإيبوقورية: (أشهر فلاسفة التاريخ، مجدي كامل، ص٥٥).

(٢) الإيبقورية: تعني الفلسفة والتصوف وهي مذهب أسسه الفيلسوف اليوناني إيبقورس ٢٧٠ ق. م وهي مذهب مادي يتخذ اللذة هدفًا أعلى للحياة السعيدة وقبل كل شيء اللذة الروحية العقلية اعتمادًا على المنطق والعلم الطبيعي: (الأخلاق الإيبقورية وأثرها في الفكر الأخلاقي المعاصر، علي عرعور، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، ٢٠٠٤م، ص٥- ١٠).

(٣) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٨٥.

(٤) لي ستروبل Lee Strobel (١٩٥٢م) صحفي معاصر يعمل في قسم التحقيقات في صحيفة (شيكاجو تريبون) قرر أن يثبت بالأدلة القانونية أن جميع ما ورد عن المسيحية لم يتم إثباته في محكمة قط ومن ثم فهو باطل لكن هذا العمل قاده إلى الإيمان بالله ومن أشهر كتبه (القضية: الإيمان، ترجمة: حنا يوسف):
(The Case for Faith, Lee Strobel, The Mininature Edition, 2000).

(٥) من مقال كتبه ستروبل على الشبكة العنكبوتية بعنوان: (هل توجد حجة تثبت وجود الله؟).

مكنون فطرته بعد أن تجاوز مراهقته وشبابه، وكما هو الحال مع كل ملحد عبر التاريخ، كان (كونت) على الرغم من شهرته بعداء الأديان وإنكارها، إلا أنه يرفض بشدة أن يوصف بالملحد! وقد صرح بذلك في أكثر من رسالة بعث بها إلى صديقه (جون ستيوارت مل)، يعتقد (كونت) بضرورة التدين للإنسان، واستحالة استقراره الكينوني النفسي من دون الدين، ما يؤكد أن نزعة العداء للدين عند بعض الفلاسفة سببها تسلط رجال الدين وإظهاره بما يتناقض مع جوهره النقي وليس ضد الدين نفسه، وتجب الإشارة إلى ذلك الموقف الذي يظهر به (كونت) نفسه إذا مر على ذكر دين الإسلام، يضفي عليه عبارات الإطراء؛ لكون الإسلام النظري - من وجهة نظره - قريبًا من الممارسة العملية في العدل والكرامة، خلاف ما كان عليه الانفصال شبه التام بين الدين النظري وممارسة رجال الدين عند أهل الكتاب في أوروبا في تلك المرحلة[1].

هذا إضافة إلى أن (كونت) الرافض للأديان، اصطدم أيضًا بعلماء التاريخ والأنثروبيولجيا الذين لم يجدوا انفكاكًا واضحًا بين الإنسان والتدين على مر التاريخ، يقول المؤرخ الإغريقي (بلوتارخ)[2]: «لقد وُجِدت في التاريخ مدن بلا حصون، ومدن بلا قصور.. ومدن بلا مدارس.. ولكن لم تُوجَد أبدًا مدن بلا معابد)، وقد أكد المؤرخ

(١) يقول المؤرخ التركي (مراد إن): «إن (أوغست كونت) كان يطعن في الإسلام وأهله متأثرًا بروح التعصب الديني وبعد أن زار الأندلس ووقف أمام آثار المسلمين فيها انتقل إلى روما وعكف على بعض الكتب التي تعرف بالإسلام والمسلمين فقرأها. وكان في مقدمة ما لفت نظره أمية الرسول ﷺ وعدم معرفته القراءة والكتابة. وكثيرًا ما كان يتساءل: كيف يتاح لمن عاش في الصحارى ولم يدرس أو يقرأ أو يكتب أن ينشئ مثل هذه الشريعة الإسلامية التي لا تماثلها شريعة في أحكامها وفلسفتها؟ وقد اجتمع (بالبابا بيوس) التاسع وسأله عن رأيه وقال له: أصحيح أن محمدًا كان أميًّا كما يدعي المسلمون وتذكر كتب التاريخ لا يعرف القراءة والكتابة؟ فأجابه البابا: نعم، إنه كان أميًّا. فعند ذلك لطم (أوغست كونت) وجهه قال: واخجلاه منك يا محمد، إنني ظلمتك! فالويل لك يا أوغست... إلا أنني أقر وأعترف بأن محمدًا أصغر من إله ولكنه على كل حال أسمى من البشر. نعم، إنه من البشر، ولكنه أسمى وأكمل من البشر).

(٢) لوقيوس بلوتارخ Lucius Mestrius Plutarchus (٦٤- ١٢٠م) مؤرخ إغريقي نباتي كتب عن ذكاء الحيوانات وحقوقها وتجنب أكل لحومها:

(Encyclopaedia Britannica- Plutarch (Greek biographer), Frank W. Walbank, Last Updated 62014-1-).

والمفكر الشهير (وول ديورانت) تجذر النزعة الدينية عند الشعوب، فقال: «ولا يزال الاعتقاد القديم بأن الدين ظاهرة تعم البشر جميعًا اعتقادًا سليمًا»[١].

أما إذا وجد فيلسوف (ملحد) فمن الصعب تعميم حالته وإخضاع الوجود كله لتقلبات فكر إنسان متذبذب مثل (كونت) الذي بدأ طريقه الفلسفي بالإنكار، وانتهى بالإقرار المحور مكابرة، فضلًا على إضفاء صفة الفلسفة عليه، التي لا تعطيه تحصينًا ولا عصمة من النقد والاستدراك، أما حقيقة تاريخ الإلحاد وحال الملحدين فيحتاج إلى إعادة تقييم بموضوعية على ضوء مقولة (موريس بلوندل)[٢] التي قال فيها: «ليس هناك ملحدون بمعنى الكلمة»، واعتراف عالم الفيزياء (هيو روس)[٣] بدور العلم في إثبات الإيمان وحشر الأفكار الفلسفية المجردة في زاويتها، إذ يقول: «عندما أبحث عن إلحادي لأناقشه أذهب إلى قسم الفلسفة في الجامعة؛ لأنه لم يبقَ في علم الفيزياء شيء يدل عليه»[٤].

ومن عجائب النفس البشرية وقوة التحدي الوجودي لها أن يتشابه كبار الفلاسفة مع صغار الأطفال من حيث نوعية الاستفسارات الأولية عن الوجود وما بعده، ففي الوقت الذي يمضي الفيلسوف عمره كادحًا منقبًا عن الحقيقة، فينقضي أجله دون أن يتذوق نعيم اليقين والاستسلام الذي أبداه ذلك الطفل عندما سأل سؤالًا فطريًّا، فجاءه الجواب فطريًّا، بأن (الأمر كله لله)، فصدق وارتاح وانصرف لحياته وشأنه، ما يعني قوة التأصيل الديني الفطري لدى الإنسان، وعجزه أن يأتي ببديل عنه وعن خبر الوحي، إنها الحقيقة الناصعة الواضحة وضوح الشمس في رابعة النهار على الرغم من أنف المكابرين.

*****

(١) قصة الحضارة، وول ديورانت، الجزء الأول، ص٩٩.

(٢) موريس بلوندل Blondel Maurice (١٨٦١ - ١٩٤٩م) الموافق (١٢٧٧ - ١٣٦٨هـ) فيلسوف فرنسي من أسرة كاثوليكية له مؤلفات كثيرة من أبرزها حول مقتضيات الفكر المعاصر في المنافحة والوهمي المثالي والمبدأ الأول للحياة الأخلاقية والتاريخ والعقيدة:

(Encyclopaedia Britannica-Blondel Maurice The Editors of Encyclopædia Britannica. Last Updated 122014-18-).

(٣) هيو روس Hugh Ross (١٩٤٥م) عالم فلكي وفيزيائي من أصل كندي عاش في أمريكا الشمالية ودرس في جامعة تورنتو وله إبحاث في الوجود واللاهوت من أشهر مؤلفاته: (العلم الحديث والإيمان) (أسباب تجعلنا نعتقد من نحن).

(4) The Creator and the Cosmos. Hugh Ross, Colorado Springs, Co: Nav Press, 1993, page, 132.

الدين والعلم والفلسفة

يبقى الدين السماوي الصحيح في القمة دائمًا؛ لأنه رسالة الخالق، يليه العلم الذي يلامس حياة الناس، ويخدمهم والذي يُعدّ فرعًا من الخطاب الرباني للمخلوقين، ويصعب ربط الحقائق الدينية والعلمية الراسخة رسوخ الجبال بأفكار الفلاسفة التي كثيرًا ما نجدها تتقلب وتتغير، وقد تختفي وكأنها سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، عندما تصطدم بصلابة المبادئ الراسخة في القرآن الكريم وثباتها، حيث لم تكن بلاد المسلمين تعاني حدة العطش المعرفي الذي أصاب أوروبا مع غياب المرجع الروحي الصحيح فيها، وذلك لبركة دين الإسلام الذي جاء ملامسًا لكل جانب من جوانب حياة الإنسان، مشجعًا للعلماء، آمرًا بطلب العلم، غير أن التقليد الغرائزي أوقع مفكري العرب في فخ التقليد الأعمى تجاه الفلسفة وعلم الكلام.

لقد كانت خطيئة فلاسفة المسلمين أنهم لم يعرفوا قدر نعمة إيمانهم الفطري الصامد والمنبثق من منابع الوحي الصافية الشافية أمام تقلبات الفلسفة البشرية، ولم يقدّروا نعمة وجود كلام الله بين أيديهم معصومًا محفوظًا، حيث قاموا بترجمة تلك الآراء الفلسفية بملابساتها المبنية في غالب الأحيان على أوضاع متأزمة فكريًّا كما أسلفنا، التي لها مناخها وبيئتها الخاصة بها، والتي تختلف جذريًّا عن ملابسات عالمنا الإسلامي القائم أصلًا على صفاء وحي تشربته القلوب والعقول، واطمأنت إليه النفوس، وزاد الأمر تعقيدًا أنهم اعتبروا هذه الترجمة هي أساس الفلسفة الإسلامية وعلم الاجتماع، معتمدين على التراث المعرفي المعتبر لفترة ما قبل نزول الوحي، ولعل هذا التقليد الخاطئ داخلٌ فيما أخبر عنه رسول الله ﷺ، حين قال: «**لتتبعن سَنَن من كان قبلكم ، شبرًا بشبر وذراعًا بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم**، قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: **فمن؟**»[1].

كان الأولى لأمة الإسلام استقلال مدارسها الفلسفية عن تلك الموروثة عن غيرهم، لاختلاف الأسباب والدوافع والبيئة، وأن يؤسسوها على تلك المنطلقات الجميلة التي

---

(١) الحديث رواه البخاري (٧٣٢٠) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

تفضل الله بها عليهم من موروث فكري معرفي صافٍ جاء به الوحي، ونزل على قلوب الصحابة نزول المطر الزلال، وكأنه نزل على جنة بربوة من النقاء الفطري، فآتت أكلها ضعفين، لقد كانت مخرجات الوحي صافية كصفائه، ومستقرة كاستقراره، وهذا هو سر وجود تلك القصص الرائعة جدًّا التي نقرؤها عن حياة الصحابة المكتنزة بمثاليات سامية لا نكاد نصدقها أحيانًا من قوة صدق أقوالهم وأفعالهم وإيمانهم بالله وثقتهم باليوم الموعود بعد النشور، إنه النقاء الفطري عندما يلامسه كلام الله، فيقدح النور منه كما تقدح الزناد، فينبثق النور مضيئًا، وما أحوج شباب الإسلام لهذا النور العظيم بعد أن وجدوا أنفسهم ضحية جهلهم بهذه المعادلة الفطرية البسيطة، وجفاء المجتمع لهم وتركهم يخوضون غمار الفكر وحدهم، فران على القلوب غشاء من الوساوس الوافدة، وزاغ البصر عن اليقين، وظن المرء ظن السوء بدينه، وامتد ذلك الظن إلى رسوله، بل وإلى ربه في بعض الأحيان، ومن هذا يتضح أن الشك والإلحاد دخيلان على بيئة المسلمين، غريبان عنها، وليس مستحيلًا على العقلاء الانفكاك عنهما وغسلهما بطهور اليقين والإيمان: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد: ١٧].

*****

آراء الفلاسفة في الوجود

سنظل نكرر دون ملل ولا كلل أن الإيمان بالغيب ومعرفة ما وراء الطبيعة لا يمكن أن يتحقق إلا من مصدريه الحقيقيين الوحي والفطرة، وأن ما نقتبسه من بعض أقوال الفلاسفة والمفكرين من أقوال مطابقة، إنما هو من باب الإخبار عنها ورصدها والاستئناس بها، للرد على من يزعمون خلاف ذلك، وليس للاستعانة بها لتثبيت إيمانٍ قد منّ الله به علينا، فثقتنا بخالقنا وبكلامه الذي بين يدينا اليوم أكبر من أن نحتاج معه إلى قصص البشر وفلسفتهم مهما بلغوا من العلم، ولو كفروا كلهم ما حرك ذلك شيئًا في ميزان المؤمن الواثق بخالقه، وإلا فأين فلاسفة الماضي كلهم صالحهم وطالحهم، لقد بادوا بعد أن سادوا، وأشدهم وطأة على الدين والحق، لم يكن بوسعه أن يفعل شيئًا لما أدركه الموت، كأني أنظر الآن إلى رفات الفيسلوف الألماني (نيتشه)، وقد اختلط

بالتراب، واختفت كل معالم شخصيته، لا يدلنا عليه إلا ربما مَعْلَم خرساني باقٍ على سطح الأرض هذا إن وجد، ولو ضاع المعلم لضاع أثر (نيتشه) على كوكب الأرض قاطبة، واندثر رفاته المزعج إلى الأبد، وهو ممن كانوا ينكرون وجود الخالق.

نحن لا نسخر من الموت أبدًا، وجميع الخلق يموتون بقدر الله وتقديره، ولكن من حقنا بوصفنا مؤمنين واثقين بربنا أن ننظر إلى رفات (نيتشه) اليوم ساخرين من أفكاره الباطلة في حياته، ولسان الحال يقول: أحقًّا هذا هو الرجل الذي أطلق يومًا ما عبارته المدوية في أوروبا حينها، يوم أن قال: «هل مات الإله»[1]! فما الذي حصل؟ لقد مات (نيتشه)! ومات كل أهل الأرض في عصره صالحهم وطالحهم، ومات الأولون من قبلهم، وسيموت الآخرون من بعدهم، وخالق الكون حي قيوم قبل (نيتشه) وبعده، وذلك أن الموت بحد ذاته ما هو إلا موجود من الموجودات الخاضعة للخالق، فلا بد أن يكون من أوجده قادرًا عليه، وأمكن منه فلا يصيبه، فهو الحي الذي لا يموت والخلق كلهم يموتون! والكون قائم وكله تابع لموجده وخالقه، هكذا كانت جرأة بعض فلاسفة الغرب على الله، ولكن انظر إلى حالهم في نهاية المطاف.

ولقد كان من يطلق عليهم (ملاحدة المسلمين) أقل جرأة من أقرانهم الغربيين، وذلك لهيبة الوحي المحفوظ من التحريف، وتمكنه من العقول الباطنة عند المسلمين، ويخافون على أنفسهم من غيرة الغيارى، فاكتفوا بقولهم بالتشكيك في النبوة والأنبياء، فكانت عبارتهم أخف نوعًا ما، فقالوا: «لقد ماتت فكرة النبوة والأنبياء»، فما الذي حدث لهم أيضًا؟ هم الآخرون ماتوا، ومات ذكرهم وفكرهم، ومات أهل الأرض في عصرهم، والأنبياء قد خلد الله ذكرهم ورسالاتهم باقية في أعماق الماضي والحاضر والمستقبل، تلقاها الناس بالقبول، وجعل الله لهم لسان صدق في الآخِرين! ولا عجب، فإن في الوجود إلهًا حكيمًا يدبره ويقدره، وسواء آمن الناس به أم كفروا، تكلم الفلاسفة أم صمتوا، وحتى قبل نزول الوحي واصطفاء الأنبياء، فالعقول السليمة تدرك يقينًا وعلى مر التاريخ أن وراء هذا الكون خالقًا عظيمًا يخلق ولا يُخلق، ويَقدر ولا يُقدر عليه، ويُحيط ولا يُحاط به، ولا تدركه الأبصار، ولا تتصوره العقول، ضرورة هذا الوجود

(١) رحلة عقل، شريف، (مرجع سابق)، ص٢٠.

تقتضي أن يكون هذا الخالق أزليًّا باقيًا حيًّا لا يموت ولا ينام، إنه الله الذي أخبرنا عن نفسه، فصمت بعده كل مخلوق.

تبيان هذا الحق المبين هدف بحد ذاته، وليس علينا هداية من لم يكن في أيدينا قدرًا أن نهديه، بل يهديه خالقه فقد أوضحنا أنه يجب على العاقل الإيمان بالله حتى لو لم يؤمن معه أحد، فالإيمان بالخالق العظيم الحي القيوم الباقي، هدفٌ يقيني يجب أن يستقر في قلب كل مخلوق بصدق بينه وبين ربه، وليس مداراة للخلق الضعفاء البائدين، ويتحقق ذلك إما بتصديق خبر السماء، أو بفهم آيات الخالق في الوجود، ولو اقتبسنا بعض مواقف وأقوال أشهر فلاسفة الغرب وفلاسفة المسلمين عن الوجود، لوجدناها تدحض وبقوة دعوى المبطلين من ذوي النفوس الواهمة بأن هناك ما يمكن إخفاؤه، أو أنهم بعيدون كل البعد عن الإيمان الفطري، الذي لم يجدوا عنه محيصًا.

لقد بلغ التدليس والكذب عند بعض دعاة الإلحاد إلى الترويج بإيهام الناس أن غالبية الفلاسفة والعلماء ملحدون، وأن الذي قادهم إلى هذا الإلحاد هو عقولهم النيرة وتحررهم الفكري من قيود الموروث الاجتماعي من دين وعادات وتقاليد، وأن الذي أبقى المؤمنين على إيمانهم، هو سذاجتهم وسطحيتهم وإيمانهم بالخرافة، ونفورهم من العلم! وهذا كله محض افتراء وكذب واستخفاف بالعقول السليمة، فإن ما قاله أعظم فلاسفة التاريخ وعلمائه عن الوجود، لا يتعارض البتة مع ما جاء به الوحي منذ أبينا آدم إلى خاتم الأنبياء، وكلها تؤكد الحقيقة المطلقة التي حسمتها هذه الآية الكريمة: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣- ٩٥].

وعند استقراء تاريخ الفلسفة، يتضح جليًّا أنه كلما ابتعد الإنسان عن الفطرة والوحي، واعتمد على العقل وحده، اضطرب في فكره، وتقلب في حياته يمينًا وشمالًا بمجرد أن يلامس قضايا الغيب والأزل والمستقبل، التي لا خبر عنها إلا من الوحي وحده، وكلما جمع بين الوحي والفطرة فيما يمكن الجمع فيه، وتوقف حيث تمضي الفلسفة إلى المتاهة الفكرية، استرشد الطريق، واقترب من الحقيقة، ولا يفوت التنويه هنا أن أول ضال قدم العقل المجرد على النص المقدس هو إبليس، عندما رفض السجود لآدم

رافضًا أمر الله، مبررًا موقفه بمنطقه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١] بينما السجود المأمور به لم يكن لذات آدم ولا للطين، بل كان طاعة للواحد الخلاق الذي خلق كل ذلك، وقدره تقديرًا، علمًا أن إبليس لم ينكر ربه، بل تمرد وفسق عن أمر ربه وعصاه.

إننا نسعى بقدر الاستطاعة لترسيخ الإيمان الصادق، بحيث يكون المؤمن مستحضرًا دائمًا لعظمة ربه الذي خلقه، وجعل أمره كله إليه، وأن يكون معتزًّا بإيمانه رافعًا رأسه، شامخًا بفكره وعقيدته يقظًا من أن يمرر عليه تدليس وخداع بعض مروجي الإلحاد عندما يلفقون الحقائق ويزورنها لخدمة مآربهم الدنيئة، فيزعمون – مثلًا – أن مشاهير علماء النهضة العلمية ورواد الحضارة والرقي كانوا ملحدين، والحقيقة أن تمسك أولئك العلماء بإيمانهم في فترة ما بعد العصور الوسطى، يُعدّ في حد ذاته انتصارًا كبيرًا للإيمان وصمودًا أسطوريًّا أمام دوافع الإلحاد والتنكر للدين، لقد كان الإلحاد متوقعًا في تلك الحقبة لتعارض الدين المحرف مع المعقول المبرهن، وانحرافه عن المنقول بالوحي الصحيح، ومع هذا نرى الإيمان بوجود الله ملازمًا لأشهر عظماء النهضة أمثال (نيوتن، وجالليلو، وبسكال، وبويل، وفاراداي، ومندل، وباستير، وماكسويل، وأينشتاين، وماكس بلانك، وهزنبرج، وروجر سبيري، وشرودنجر، ولول ديبراك، وتشالز شرنجتون)[1]، وغيرهم والفلاسفة الأكثر شهرة في عصر اليونان (سقراط وأفلاطون وأرسطو) كانوا أيضًا من المؤمنين بوجود الإله الخالق للكون أصلًا على اختلاف تصوراتهم عنه[2]، وذلك لأن العلم والدين الحق لا يتعارضان أبدًا، ولكن العلم المتطور والمتغير لا يحيط بكل ما ورد في الوحي الراسخ، بينما الفهم القاصر للدين، أو تسخيره لأغراض دنيوية، هو الذي يعادي القيم والعلوم، ويظهر هذا النفور الظاهري من الدين، وهذا ما جعل للفلاسفة من مختلف الأديان وجودًا ملحوظًا بآرائهم على الرغم من اختلافها، وسنعرض فيما يلي أمثلة على ذلك من المسلمين وغيرالمسلمين.

*****

(١) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص٥٨.

(٢) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص٥٩.

أولًا: الفلاسفة من غير المسلمين

فلاسفة مؤمنون بوجود الله

هناك قوى شيطانية كامنة في المجتمع الإنساني تبذل المستحيل من الجهود لإخفاء حقيقة أن غالبية العلماء والفلاسفة من غير المسلمين قديمًا وحديثًا، قد حكّموا عقولهم وأقروا بالحقيقة، وسطروا بعض العبارات المنسجمة مع فطرة الإنسان بما لا يخدم هوى دعاة الإلحاد، حتى وإن بذلوا كل ما في وسعهم لإخفاء هذه الحقائق واستغلال جهل الناس بتفاصيل مواقف الفلاسفة، لينسبوا إلى بعض المشاهير خلاف ما كانوا عليه من الإيمان بوجود الله، طمعًا في الاستقواء بأسمائهم الثقيلة على باطل الإلحاد الزائف، يتهمون العالم (ألبرت أينشتاين) بالإلحاد مثلًا دونما برهان، ويتعمدون إخفاء مقالاته الإيمانية الموثقة التي تكاد تجمع على الإشارة إلى وجود الله تلميحًا وتصريحًا، كقوله: «يدرك كل إنسان يهتم بالعلم بصورة جادة، أن قوانين الطبيعة تعكس وجود روح كلي أسمى كثيرًا من الإنسان»[1]، وقوله في كتابه (العالم كما أراه): «يكشف القانون الطبيعي ذكاء أو قوة عاقلة فائقة يُعدّ تفكير الإنسان المنظم وفعله بالقياس إليها ضئيلًا لا شأن له»[2]، وعن سبق إصرار وترصد ظالم لا يريدون الناس أن تسمع ما قاله عالم الكيمياء (ملفن كالفن)[3] إن: «هذا الانتظام الدقيق بالكون، ودقة قوانينه، وتناغمها وانتظامها وقابليتها للفهم العلمي من الإنسان، يرجع إلى وجود الإله الذي أنشأه»، علمًا أنه لم يقف عند هذا، بل يقرر (كالفن) ضرورة أن يكون لهذا الوجود خالق فيقول: «وجود

---

(١) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص٤٩.

(٢) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص٢٦٨.

(٣) ملفن كالفن Melvin Calvin (١٩١١- ١٩٩٧م) الموافق (١٣٢٩- ١٤١٨هـ) عالم كيميائي أمريكي كبير ومهتم بعلوم الحياة والأرض ولد في مدينة سانت باول ول مينيسوتا الأمريكية نال جائزة نوبل في الكيمياء وذلك لدراسته الكبيرة والمشهورة التي تفسر كيف تتم إحدى أعقد معجزات الله في خلقه عملية البناء الضوئي لدى النبات Photosynthesis (Encyclopaedia Britannica- Melvin Calvin, George B.: Kauffman).

أكثر من إله في إدارة الكون، سيؤدي حتمًا إلى إنهياره»، وقبل أن يخلق كالفن بأكثر من ألف عام، كان القرآن ينزل على رسول أمي لا يقرأ، ولا يكتب، ولا يعرف الفلك ولا الجغرافيا ليبلغ الناس بأن الله يقول: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

قد لا تحتاج إلى ما قاله (كالفن) وغيره من المشاهير حتى يطمئن قلبك بالإيمان، بل يكفي أن تفهم هذه البديهة المنطقية البسيطة، بأن تسلسل (العلل)[١] و(المعلولات)[٢] يستحيل أن يتواصل إلى ما لا نهاية، يعني لأنه بمجرد اقتناعك أن لكل موجود علة لوجوده، وسبب لوجوده، ستستمر بتسلسل العلل إلى أن تصل إلى ما يسمى عند الفلاسفة (العلة الأولى)، وهذا يعني أنه مهما طالت الأسباب والعلل، فلا بد من الوصول إلى (شيء) لا علة له و(سبب) لا مسبب له، ولو تأملت لوجدت أن المنطق يضطرب بمجرد اقترابنا من التفكير في ذات الخالق، فكيف تسأل عن موجد من تصفه بأنه واجب الوجود، فواجب الوجود لا يحتاج إلى موجد، وإلا لأصبح ممكن الوجود مثل جميع المخلوقات، وكذلك الحال عند لفظك كلمة (الخالق) يجعل سؤالك عمن خلقه في غاية البطلان المنطقي، فكيف تسأل عمن خلقه وأنت تسميه خالقًا؟

عندما أوغل اليونان القدماء في الشرك، وتعددت آلهتهم، لم يطمئنوا أبدًا إلى تعدد تلك الآلهة، وكان الأمر بالنسبة إليهم صادمًا للفطرة، فقرروا اتخاذ كبير الآلهة، وأطلقوا عليه اسم (زيوس)! قائلين: إن الكون لا يستقيم مع فوضى الآلهة المتعددة، وحتى (زيوس) لم يجدوا فيه ما يروي عطشهم الفطري، فاهتدوا إلى فكرة أرقى مفادها أنه لا بد من قدر كوني يهيمن على أعمال جميع الآلهة المتناثرة حتى تتحقق الوحدة الكونية التي لا تتحقق من دونه[٣]، أرأيت كيف (تقاتل) فطرهم السليمة من أجل إنقاذهم

---

(١) العلة: هي ما يؤثر في غيره كالكاتب بالنسبة إلى الكتابة والخباز بالنسبة إلى الخبزة والنجار بالنسبة إلى الطاولة.

(٢) المعلول: هو الأثر الحادث عن العلة كالكتابة بالنسبة إلى الكاتب والخبزة بالنسبة إلى الخباز والطاولة بالنسبة إلى النجار.

(٣) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٢٣٦.

من الشرك؟ يقول (أفلوطين)[1]: «إن هذا العالم كثير الظواهر، دائم التغير، فلا يمكن أن يكون أوجد نفسه، بل لا بد من خالق مبدع، وهذا الخالق هو الله، وهو واحد أزلي أبدي قائم بنفسه، وهو موجد المادة»[2]، وكان (الرواقيون)[3] في عصر اليونان هم أول من أشار إلى الأفكار الفطرية التي يولد عليها الإنسان، ووافقهم عليها (ديكارت) في العصر الحديث، وعلى الرغم من أن (لوك)[4] أنكر ظاهريًّا تلك الأفكار الفطرية، وقال: إن «العقل يولد صحيفة بيضاء يأخذ أفكاره من التجربة»، إلا أنه تراجع في نهاية حياته كما يتراجع كثير من الفلاسفة عن آرائهم، وقال: إنه يتفق مع (ديكارت) في الجانب التجريبي بما في ذلك إثبات الوجود عن طريق التأملات العقلية[5] التي من خلالها يريد التوصل إلى الإيمان بوجود الله، فيقول: «أما البرهان على وجود الله، فهو أن الموجود الحادث الذي هو أنا، يستلزم موجودًا سرمديًّا كلي القدرة وعاقلًا أيضًا، من حيث إنه خلق عقلي وخلق المادة ونفسي، وهذا برهان على وجود الله دون الحاجة إلى معنى غريزي»[6]، ويلاحظ أنه على الرغم من إنكاره للأفكار الفطرية إلا أنه يرجع إليها بقوله: «إن عقولنا تجهل الكُنهَ، ولا تدرك سوى الظواهر»، وسبب رفضه للمعنى الغريزي الفطري، هو اعتقاده أنه إن وجد عند العامة فهو مشبع بالتشبيه القاصر، ولا يطابق حقيقة الله ذي الكمال المطلق.

---

(١) أفلوطين Plotinus (٢٠٤ - ٢٧٠م) فيلسوف يوناني ويُعدّ المفكر الممثل لفكر القرن الثالث كان مصريًّا بدمه إسكندرانيًّا بفلسفته يونانيًّا بمدرسته كان يتحفظ في الكلام عن أهله ولا يأكل لحمًا قط وهو صاحب نظرية الفيض التي تفترض أن المخلوقات تفيض من الإله: (معجم الفلاسفة، طرابيشي، ص٧٦).

(٢) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص٥١.

(٣) الرواقية: مدرسة فلسفية تقوم على الفضيلة والجبرية الكونية والحرية الإنسانية دون أثر للمصادفة أسسها (زينون) في أثينا في النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد: (تاريخ الفلسفة، برتراند رسل، الكتاب الأول، الفلسفة القديمة، ترجمة: زكي نجيب محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص٣٩٣).

(٤) جون لوك John Locke (١٦٣٢ - ١٧٠٤م) الموافق (١٠٤١ - ١١١٦هـ) فيلسوف إنجليزي ولد بالقرب من بريستول يؤمن بالأفكار الحرة التجريبية وينكر الأفكار الفطرية مارس التجريب العلمي حتى لقب باسم دكتور لوك يُعدّ من دعاة فلسفة التسامح في أوروبا: (موسوعة الفلسفة، بدوي، ص٣٧٣).

(٥) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٣٧٢.

(٦) تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، (مرجع سابق)، ص١٤٩.

وهذا أشهر الفلاسفة (أرسطو) مبتكر علم المنطق، وصاحب لقب المعلم الأول، يقول: «الله سبب وناموس الأشياء الموجودة وترتيبها، وحياة هذا الناموس ليست حياة دائمة لا أول لها ولا آخر فقط، بل أيضًا على غاية الفضيلة»[1]، ويقول أستاذه (أفلاطون): «إن الخطأ الأكبر الذي يرتكبه الناس، إنما مصدره واحد من اثنين، إما تصوير الإله بصورة لا تتفق مع ألوهيته ونسبة أمور إليه لا يمكن أن تصدر عنه، وإما أن يكون مصدر ذلك إنكار الإله والإلحاد»[2]، ومع حيرة أفلاطون في تعدد الآلهة، إلا أنه يؤكد أنه مهما تعددت، فليست مشابهة أبدًا للإله الأعلى الأوحد، سبحان الله كأنه يقرأ آية الشورى في علو صفات الخالق: ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] أما الفيلسوف (أوغسطين)[3] فيقر بأنه لم يتوصل إلى الإيمان عن طريق البراهين العقلية، بل شعر بأن هناك قوة خفية هي التي اقتادته من دنيا الشهوات الى عالم الإيمان، مؤكدًا ضرورة الإيمان بالله دون برهان حسي، ويقول: إن الإنسان لا يمكن له إنكار وجود الله، لكنه يؤكد على استحالة إدراك ماهيته[4].

وعلى الرغم من اعتبار (سبينوزا)[5] من فلاسفة الإلحاد عند بعض مروجي الإلحاد، إلا أنه كان يحاول مستميتًا الوصول إلى الإيمان الصحيح بعد أن اشمأز من الطقوس الدينية المحرفة عند قومه، وضجر من خوائها الروحي، لقد قال (سبينوزا)

---

(١) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص١٠٤.

(٢) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص١٨٧.

(٣) أوغسطين Aurelius Augustinus (٣٥٤- ٤٣٠م) فيلسوف مسيحي لاهوتي وأحد كبار باباوات الكنيسة الكاثوليكية كان أبوه وثنيًّا وأمه مسيحية يرى أن غاية الإنسان السعادة وأنها متحققة عن طريق طاعة الله والسيطرة على البدن ولد في الأحراس بشرق الجزائر: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الأول، ص٢٤٧).

(٤) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٢٥٠.

(٥) باروخ إسبينوزا Baruch Spinoza (١٦٣٢- ١٦٧٧م) الموافق (١٠٤١- ١٠٨٨هـ) فيلسوف هولندي يهودي تبدأ فلسفته من التفكير في الله ثم تنزل منه إلى سائر الموجودات عكس ما اعتاد عليه الفلاسفة ولد في أمستردام من أكثر فلاسفة النهضة أهمية استطاع إخراج الفلسفة الديكارتية من جانبها الوحداني الوجداني إلى نتائجها المنطقية: (موسوعة الفلسفة، الجزء الأول، ص١٣٦) و(تاريخ الفلسفة الحديثة، رايت، ص١١١).

نفسه: «إن جوهر (الله) يجب أن يكون لا متناهيَ وبصفات لا متناهية (أي لا يحده حد، ولا يحيط به تصور)، حيث إن افتراض أنه متناهٍ يعني أنه يحده حد، ومن ثم لن يكون الحقيقة الوحيدة»[١]، وقد استنكر بشدة على الكنيسة أن جعلت من الإله شكلًا إنسانيًّا، فيقول: «أقرّ بأني لا أفهم ماذا يريدون بقولهم هذا، حتى لو افترضنا أن ذلك صحيح، فالأمر أقرب إلى القول: إن الدائرة أصبحت مربعًا»[٢]، ومن قرأ مؤلفات (سبينوزا) أدرك جيدًا أنه مؤمن بوجود الله، ولكنه يعتقد بوحدة الوجود[٣]، وهذا مدخل خاطئ استفاد منه المدلسون لإيهام الناس بأنه ملحد[٤]. وهذا خلط غير منصف بين الإلحاد بمعنى الإنكار النهائي لوجود الله، وبين إشكاليات العقيدة مهما كانت خاطئة كالقول بوحدة الوجود، مع بقاء أصل الإيمان بوجود الخالق، ومهما حاول الإنسان الانفكاك عن الفطرة المعرفية بالإيمان بوجود الله، فإنها تبقى قدرًا يحيط به، ويحاصره، يقول (مارتن لوثر): «إننا نعرف الله بالفطرة، ناموس منقوش في القلب بالطبع من الله»[٥]، وانطلاقًا من هذه الفطرة قاد (لوثر) ثورته الشهيرة على الكاثوليكية المتسلطة، وكان من أهم مميزات تلك الثورة إسقاط أي واسطة بين الله والإنسان، فتشكلت بسبب ثورته الطائفة (البروتستناتية) الأكثر تحررًا من بين طوائف النصارى في الوقت الحاضر.

ويؤكد (مالبرانش) على الإيمان بالله وبالوجود، ويحصر دور الفكر في محاولة فهم مضمون الإيمان، ويقول: «إن خير وسيلة لتعريف (الله) هي أن تعرفه بما عرف به نفسه، وهو يكلم موسى»[٦]، أي إنه تلقى منه كلمات، فعرفه حق المعرفة دون أن يراه، ويقول

---

(١) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٣٥٢.

(٢) فلسفة الدين مجموعة من المؤلفين بإشراف علي عبود المحمداوي مقال الفلسفة والدين للكاتب: مارك أونغلاري، ترجمة: نور الدين علوش، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م، ص٤٦٦.

(٣) وحدة الوجود: مذهب فلسفي يرى أن الإله والمخلوقات شيء واحد وأن العالم هو صورة الإله ومن ثم فلا موجود إلا الإله، ولا يرى القائلون بوحدة الوجود أن الإله قد خلق العالم لكنهم يقولون: إن العالم هو الله والله هو العالم: (رحلة العقل، شريف، ص٤١).

(٤) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص١٥٥.

(٥) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٣٦٦.

(٦) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٤٤٨.

أيضًا: «ما من شيء إذا تأملناه كما ينبغي إلا ردنا إلى الله»[١]، ويرى (ألكسندر صموائيل)[٢]: «إنه من الخطأ زعم بعض الفلاسفة أن نظرية المعرفة هي أساس الميتافيزيقا[٣]، وإنما هي فصل من فصوله، وإن الألوهية المطلقة هي الصفة التجريبية التالية لأعلى صفة ممكن أن يعرفها الناس، ومن المؤكد استحالة معرفتها بالتجربة، لكن يؤكد أنها (ليست من نوع أي صفة)»[٤].

إنما يؤتى الإنسان من قبل تلك الظواهر المأساوية مثل اضطراب الفكر البشري، وتباين الأفهام، والتطرف، والتعصب للرأي والمذهب والدين والسياسة، ودعوى الحفاظ على المكتسبات الذاتية، والتعصب للتصورات الخاطئة عن الغيبيات، وعدم وجود من يبين ذلك بكل صفاء ونقاء، وكلها عوامل تؤدي مجتمعة إلى وجود ظاهرة الفوضى الطارئة على الفطرة السوية للإنسان، والمقصود هنا تلك المعارك الصامتة الطاحنة داخل الذات حول أسرار الوجود وما بعد الوجود، ومن الخطأ أن تطبق الصور المحدودة لوسائل العقل (العنصر، والسببية، والضرورة) في علم الغيبيات (الميتافيزيقيا)، من أجل البرهان على الوجود، أو لإثبات صحة الدين، يقول الفيلسوف الألماني (إيموائيل كانت): «التسليم بوجود الله مستمد من شعورنا الخلقي الفطري الذي يفوق المنطق النظري الذي لم يتطور إلا لمعالجة الظواهر الحسية، إن عقولنا تجيز لنا أن نعتقد أن وراء الأشياء إلهًا، وشعورنا الأخلاقي يأمرنا بذلك»[٥]، ووافقه على ذلك (جان جاك روسو) عندما قال: «إن شعور القلب فوق شعور العقل»، ووافقهما (بسكال) أيضًا بمقولته التي اشتهرت في الآفاق: «إن للقلب أسبابًا خاصة لا يمكن أن يفهمها العقل»، وجميعهم يشيرون بصورة مباشرة أو غير مباشرة إلى الحقائق الفطرية التي نعيشها بوضوح، والتي أصبحت جزءًا لا يتجزأ من كينونتنا الوجودية، دون الحاجة إلى إخضاعها للعقل والتجربة والبرهان.

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، (مرجع سابق)، ص٩٨.

(٢) ألكسندر صموائيل Alexander Samuel (١٨٥٩ - ١٩٣٩م) الموافق (١٢٧٥ - ١٣٥٨هـ) ولد في سيدني وتوفي في إنجلترا عمل أستاذًا في جامعة فكتوريا في مانشستر من مؤلفاته (النظام الأخلاقي والتقدم) و(أسس الواقعية): (معجم الفلاسفة، طرابيشي، ص٩٠).

(٣) الميتافيزيقيا: هي الاهتمام بما وراء الطبيعة والمقصود بها أمور الغيبيات الزمانية والمكانية والوجودية وما وراءها.

(٤) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٢٢٣.

(٥) قصة الفلسفة، ديورانت، (مرجع سابق)، ص٣٥٣.

ويُعدّ الفيلسوف (أنسلم) من أبرز فلاسفة العصور الوسطى[١]، وهو صاحب الحجة الوجودية، عندما رأى الخلاف بين (الديالكتيين)[٢]، الذين ينتصرون للاحتجاج العقلي المحض في العقائد، في مواجهة (النحويين) الذين تجاهلوا كل عقيدة تقوم على العقل، وقصروا الأمر على الإيمان الساذج الخالي من التفكير، فقال (أنسلم) عبارته المشهورة: (أومن لأتعقل)، حيث جعل الإيمان هو المعطى الأول يليه التأمل والاحتجاج بالعقل، فيقول: «لا أفهم لكي أومن، بل أومن لكي أفهم؛ لأنني لم أستطع أن أفهم دون أن أومن»[٣]، ويتبع أنسلم مبدأ إثبات الوجود عن طريق التدرج في الكماليات، حيث قال إن: «الخيول أكمل من الحشرات، والإنسان أكمل من الخيول وهكذا تصاعديًّا» إلى أن يقف عند حد أقصى كما تصور، فيَعدّ ما وراءه هو الكمال المطلق المسبب لكل كمال دونه، فالله عند (أنسلم) هو (الكائن) الذي لا يمكن تصوره، وهو فوق أقصى كمال يمكن تصوره مطلقًا، وهو قطعًا أكمل من أي كائن استطعنا تصوره[٤]، وقد وافقه (ويليم أوكهام)[٥] على إيمانه بالله، وإن اعترض على بعض آرائه، وإنما دفعه ذلك الاعتراض على إثبات العقائد الإيمانية بالبراهين العقلية لاعتقاده الجازم «بأن الله قادر على كل شيء، وأنه حر حرية مطلقة فيما يريده، ولا يخضع لأحد في مشيئته، ولهذا فهو القادر على أن يشاء ما يضاد قوانين الطبيعة، ويمكنه أن يهب لطفه ورحمته لمن يشاء دون مقابل»[٦].

أما العالم السرافي (بونافنتورا)[٧]، فيرى أن وجود الله هو أعظم الحقائق وأوضحها، لكن هناك أخطاء تحجب هذه الحقيقة، ومنها الخطأ في التصور، والخطأ في البرهان،

---

(١) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٢٣٥.

(٢) الديالكتيّون: هم أناس ينتهجون (الديالكتيك) في الحوار وتعني التقاء الناس على المحاورة والنقاش من خلال فن الجدل (الديالكتك) على أنه البرهان في إقناع المحاور.

(٣) محاضرات في تاريخ الفلسفة، دونت هيجل، ترجمة: خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢م، ص٢١٥.

(٤) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٣٨٤.

(٥) وليام أوكام William of Ockham (١٢٨٠ - ١٣٤٩م) الموافق (٦٧٩ - ٧٥٠هـ) من الفلاسفة اللاهوتيين المدرسيين في إنجلترا ومن أكثر الفلاسفة تأثيرًا في القرن الرابع عشر الميلادي حيث أسهم في نقل أوروبا من القرون الوسطى إلى العصر الحديث: (قصة الحضارة، وول ديورانت، الجزء الثامن، ص٨٠٦٠).

(٦) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٢٥٤.

(٧) يوحنا بونافنتورا (١٢٢١ - ١٢٧٤م) الموافق (٦١٨ - ٦٧٢هـ) عالم لاهوتي إيطالي ولد في بانيوريا، وتوفي في ليون يرى أن النزول إلى الفلسفة هو الخطر الأكبر: (معجم الفلاسفة، طرابيشي، ص٢١٢).

والخطأ في الاستنتاج، وحتى مع الاحتياط من هذه الأخطاء تبقى معرفة الله وفق معايير المعرفة البشرية صعبة جدًّا؛ لأن المعرفة تعني الإدراك والإحاطة، فالإدراك مجرد العلم بوجود الشيء، والإحاطة هي استيعاب ماهيته في التصور، وهذه الإحاطة لا تتحقق إلا عندما تكون ماهية العالم بالشيء في مستوى المعلوم به، أو أعلى، ولهذا يستحيل أن يدرك الإنسان (الأدنى جدًّا) ربه (الأعلى جدًّا جدًّا)، أو أن يعرفه معرفة إحاطة، وذلك للفارق الهائل في المرتبة والمستوى بين الله والإنسان، ولهذا اقتصر الأمر على معرفة الله معرفة إدراك عقلي بعد إيمان نقلي فقط، وليس إدراكًا حسيًّا كما تدرك المخلوقات، أي نؤمن يقينًا بوجوده بالفطرة أصلًا، مستأنسين بآيات الكون وبراهينه[1]، وعلى مثل هذا الاعتقاد يقول (توماس أكويناس): «إن بوسعنا أن نعرف بطريقة المفهوم الطبيعي أن الله موجود، وأنه واحد؛ لأن وجوده ووحدانيته تتلألأ في عجائب العالم وحسن تنظيمه»[2].

ويرى (لول رامون)[3] أن الله هو الموضع الأسمى والعظمة العليا، وأن العقل البشري في مرتبة أدنى من مرتبة الله، ولهذا لا يستطيع العقل الإحاطة بالله، لكن الله يريد للإنسان أن يعرفه، ولهذا جعل الإيمان يمكن الطبيعة الإنسانية من الطفو على المعرفة كما يطفو الزيت على الماء، وعليه فإن المخلوقات من دون الله تكون مظلمة وخالية من المعنى وأعدامًا لا وجود لها[4].

وأما الأديب والمفكر الفرنسي (فولتير) فلم يقف عند حتمية الوجود الإلهي والإيمان به، حين يقول: «إذا وجد شيء منذ الأزل، وأنا موجود، ولست موجودًا بذاتي، فهناك موجود أوجدنا، وهو موجود بالذات هو الله»[5]، بل تجاوز ذلك إلى ضرورة حدوث البعث والحساب بعد الموت، فهو يؤكد أن الإيمان بالله ليس له قيمة أخلاقية ما لم يكن مقرونًا بالخلود والثواب والعقاب، وقد كان فولتير يربط صلاح المجتمع ومن

---

(١) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٣٨٤.

(٢) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص١٠٧.

(٣) لول رامون Ramon Lull (١٢٣٣-١٣١٦م) الموافق (٦٣٠- ٧١٦هـ) مفكر إسباني ولد في جزيرة ميورقة وهو مؤمن متصوف يكفر كل من ليس بمسيحي: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الأول، ص٣٨١).

(٤) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٣٨٣.

(٥) تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، (مرجع سابق)، ص١٨٩.

بعده الدولة بوجود الدين، فيقول: «أريد من زوجتي وخادمي وخياطي أن يؤمنوا بالله؛ لكي يقل غشهم لي»، ويقول: إن المؤمن هو الإنسان المقتنع بوجود إله قوي وصالح خلق جميع الأشياء والكائنات، وإن عبادته سبقت جميع الأنظمة في العالم»[1]، هكذا يريد (فولتير) من الناس أن تؤمن بالله وحده، ولما ركع أمامه شابان صغيران، طلبًا للعفو منه لأنهما قد سرقا بعض ماله، انحنى وأخذ بأيديهما، وأوقفهما، وسامحهما وقال لهما: «إن الركوع لله وحده، فلا ينبغي لكما الركوع أمام أحد سواه»، وهكذا كان فولتير مؤمنًا بوجود الله داعيًا إلى الحرية، وكاسرًا لطوق الاستعباد البشري المقيت، ولهذا كان من الطبيعي أن يتعرض لهجمة شرسة ممن يرون في فكره تهديدًا لمصالحهم، خاصة أنه من دعاة الحرية والكرامة البشرية، حيث اختصر فكره عندما أوصى حفيد الفيلسوف الأمريكي (بنيامين فرانكيلين)[2] الذي اصطحبه معه لزيارة فولتير، وضع فولتير يده على رأس الحفيد، وطلب منه أن يكرس حياته لـ (الله والحرية)[3].

وعلى الرغم من أن (رينيه ديكارت) سلك منهج الشك، طريقًا للوصول إلى اليقين، وسمى هذا النوع من الشك الشكَّ الديكارتي؛ لاختلافه عن الشك الكلي، فقد صرح ديكارت بإيمانه من خلال قوله: «إن الله هو خالق ماهيات المخلوقات وجواهرها، وهو الذي وضعها في الوجود حرًّا»[4]، وقوله: «هناك فكرة لا يمكن أن أكون مصدرها، ألا وهي فكرة (الله)، فهذه الفكرة تصور لي جوهرًا لا متناهيًا، سرمديًّا ثابتًا مستقلًّا، كله علم وكله قدرة»، ومن أعظم مقالاته قوله: «فكرة (الله) لا يمكن أن يكون مصدرها

---

(١) قصة الفلسفة، ديورانت، (مرجع سابق)، ص٣٠١.

(٢) بنيامين فرانكلين Benjamin Franklin (١٧٠٦- ١٧٩٠م) الموافق (١١١٨- ١٢٠٤هـ) سياسي وكاتب وعالم وناشط حقوقي تنويري أمريكي له اختراعات فيزيائية وكهربائية منها اختراع مانعة الصواعق وقياس المسافة بالعجلة وموقد فرانكلين ويُعدّ من المؤسسين الرئيسين للولايات المتحدة الأمريكية من أسرار نجاحه أنه يقسم اليوم إلى جدول مهام ثم يتفقد تنفيذها آخر النهار؛ تخليدًا له تم تثبيت صورته على العملة الأمريكية فئة المئة دولار وهو أول رئيس أمريكي حذر من خطورة هجرة اليهود إلى أمريكا: (بنيامين فرانكلين صورة عالم كاتب فيلسوف إنسان، عباس محمود العقاد، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٥م).

(٣) قصة الفلسفة، ديورانت، (مرجع سابق)، ص٣١١- ٣١٢.

(٤) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٤٩٥.

غير الله نفسه؛ لأن فيها من المزايا العظيمة التي كلما تأملتها بعناية أكثر، وجدت نفسي أقل قدرة على إنتاج هذه الفكرة بنفسي من نفسي وحدها، فلا بد أن أستنتج استنتاجًا ضروريًّا بأن الله موجود لأني كائن متناهٍ، ولا يمكن لي أن أنتج جوهرًا غير متناهٍ، وحتى فكرة جوهر لا متناهي هذه أودعها في نفسي جوهر غير متناهٍ حقًّا»[1].

*****

الشاذون عن القاعدة

إن الإشارة إلى هذه الأفكار الإيمانية بوجود الله للغالبية العظمى من عظماء الفلاسفة عن وجود الله وهيمنة النزعة الإيمانية الفطرية بشكل عام، لا ينفي وجود قلة آخرين وصل بهم التطرف والعناد أحيانًا أن يتخذوا مواقف لا يمكن تفسيرها بسوى الإلحاد العنادي، وهم بذلك ومن تاريخ نشأتهم يؤكدون أن الإلحاد له أسبابه النفسية والفلسفية التي لا علاقة لها بالعلم، ومما يؤكد ذلك أننا لو فتشنا في تاريخهم النفسي والاجتماعي، حتمًا سنجد (حوادث اعتراضية في مسيرة حياتهم) كانت سببًا في مثل هذا الشذوذ الفكري، فهذا إمام الشكّاكين (هيوم) نفهم نزعته الإلحادية جيدًا عندما نعلم أنه بلغ به الغلو في الشك إلى أن شك في نفسه وعقله ووجوده، ثم استقر على هذا الوضع، ولم يتحول منه إلى اليقين كما فعل (ديكارت) من قبله، وكان (هيوم) أيضًا يصر على رؤية الصانع والمصنوع حتى يؤمن بالصانع[2]، ألا نظلم الحقيقة عندما ننظر إليها من خلال زاويته الحادة، وتطرفه الفريد من نوعه، وأغرب من ذلك أن تجد من يأخذ بمثل هذا الرأي متعصبًا له، ويحتج بمثل هذه العقول التائهة تمامًا، متجاهلًا آراء الأغلبية العظمى من الأسوياء منهم عبر التاريخ.

لسنا بصدد نفي وجود هذه القلة المشاغبة على غير بصيرة، ولكن يجب أن نحصرها في حجمها الطبيعي، على أنهم أقلية محدودة على هامش مسرح الوجود، ولربما في أقصى

(١) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٤٩٦.

(٢) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص١٥٥.

هامش التاريخ كله، مقارنة بأكثرية الفلاسفة المتربعين على عروش المنطق والمعرفة أمثال (كانت) الذي يُعدّ شيخ الفلاسفة المؤمنين بالعقل، وبوجود الله خالق العقل وحده، والذي أصدر كتابه الشهير (نقد العقل الخالص)[1] مؤكدًا أن مصادر المعرفة هي الحس والعقل، وليس الإحساس وحده ولا العقل وحده، وأن للعقل أفكارًا نظرية مركوزة فيه أطلق عليها (قوانين العقل المنظمة)، وأهمها فكرة الزمان والمكان، والقانون والسببية، وأن قوة العقل مرتبطة بالظواهر الحسية، وإذا خرج إلى كُنهِ الأشياء وقع بالخطأ، ويقول: «من المستحيل الاستدلال بالعقل النظري على وجود الله، ولكن هناك العقل العملي، وهو الضمير الذي نستدل به على وجود الله؛ لأننا نجد في قرارة نفوسنا شعورًا قويًّا لا سبيل إلى إنكاره يأمرنا بالخير، وينهانا عن الشر، ويؤنبنا عند ارتكاب الذنوب والآثام، فمن أين أتانا هذا الشعور؟ إنه القانون الأخلاقي الذي فطرت عليه نفوسنا»[2]، ولقد تصدى (كانت) المؤمن لأفكار (هيوم) الإلحادية ودحضها، كما فعل من قبله (سقراط) بحجج السوفسطائيين[3]، وعلى النسق نفسه وقف الفيلسوف الفرنسي (جانيه)، عندما أكد على وجود الله، وأشار إلى علمه المطلق قائلًا: «إن الشعور يدرك محيطًا لا غور له نحن نغوص فيه، وهو يتجاوزنا من كل ناحية»[4].

*****

ثانيًا: فلاسفة المسلمين

قد يكون أشد فلاسفة المسلمين تطرفًا أقربَ إلى الحق من أفضل الفلاسفة غير المسلمين اعتدالًا، ولئن كانت الحاجة إلى آراء فلاسفة أهل الكتاب ضرورة للفراغ الروحي

(١) (نقد العقل الخالص): من أشهر كتب الفلاسفة في التاريخ لخص فيه الفيلسوف الألماني (إيموائيل كانت) نظريته في المعرفة بمقولة شهيرة وهي «أن كل مفهوم بلا معطيات حسية هو مفهوم فارغ وأن كل معطى حسي بلا مفهوم فهو أعمى».

(٢) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص١٦٢ - ١٧٢.

(٣) السوفسطائيون: مصطلح مشتق من السوفسطائية sophism وهي كلمة يونانية مشتقة من لفظة سفسطة sophisma التي تعني الحكمة والحذق وقد أطلقها الفلاسفة على الحكمة المموهة والحذاقة في الخطابة أو الفلسفة وأطلقت على كل فلسفة ضعيفة الأساس متهافتة المبادئ كفلسفة الشك واللأدرية: (الموسوعة العربية).

(٤) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٤٣٩.

عند مجتمعاتهم، فإن آراء فلاسفة المسلمين كانت زيادة غير ضرورية على وضع متوازن أصلًا تحمله أرواح مستقرة بعقيدتها وإيمانها الخالص، تنعم بسعادة حسم الأمر من منطلق الوحي الذي أدرج حالهم المستقرة كونيًّا بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٢- ١٦٥].

ولكن انتشار الحضارة الإسلامية في القرون الأولى يعني أنه لا بد من أن تتداخل مع الحضارات السابقة والمعاصرة لها، وهذا ما حصل فعلًا أن ترجمت علوم الفلسفة والمنطق بطريقة عفوية، وزج بها في ميدان الفكر الإسلامي، ومن اللافت للنظر أن منطقة الاحتكاك الحضاري كانت مع حضارات فارس والروم والأندلس، حيث نشأ في تلك المناطق الجغرافية غالبية فلاسفة المسلمين ومتكلميهم، ولكن تبقى للأمة الإسلامية خصوصية فذة، نالتها ببركة هذا القرآن العظيم، آخر كتاب محفوظ نزل إلى البشرية، ما يجعلها في غنى عن كثير مما ذهب إليه المهتمون بالمنطق والفلسفة، وسبب ذلك أن الوحي تمكن بقوة من عقول نقية صادقة، لم تتلوث بشيء من حيرة الأمم الأخرى، لقد كانت المجتمعات العربية تعاني إشكالية الشرك والوثنية، واتخاذ الآلهة الباطلة التي كان من السهل صرفها عنها إلى عبادة الواحد الأحد، وهذا يعني أن الوحي قد تسلّمها خامًا نقيًّا من تعقيدات الفلسفة اليونانية، فنقلها من الشرك إلى التوحيد بالتوبة فقط حتى صورها بأحلى صورها وربّاها على عينه، وكأنه أعاد خلقها من جديد، فتفكير الرجل العربي قبل الإسلام، لا يمت بصلة إلى ما بعد الإسلام إلا فيما أقره الإسلام له من أخلاق ووفاء بالعهود والعقود والكرم، التي جاء الإسلام لتطويرها ورعايتها، كما جاء في الحديث الشريف: «**خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا**»[1].

*****

(١) الحديث صححه الألباني عن أبي هريرة عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه قال: «**خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا**».

زهد المسلمين في الفلسفة

المسلمون لا يركضون خلف المنهج الفلسفي وعلم المنطق لذاتهما؛ لأنهم لا يعانون كما يعاني مَنْ حرموا أنفسهم نور الله المبين، وهذا هو الفرق بين فلاسفة المسلمين وغيرهم، فعندما يرد ذكر علم المنطق وفنون الفلسفة عند المسلمين الذين يحملون نورًا يمشون به في الظلمات فالأمر يختلف تمامًا عن الحال مع التائهين من غير المسلمين الزاهدين في كل ما هو دين موروث من أسلافهم، ففي الأوساط الإسلامية ينحني الجميع ضيوفًا مؤدبين غاية الأدب على مائدة القرآن العظيم، الجميع يصبحون أقزامًا بأفكارهم أمام كتاب كريم مبين عظيم لو أنزل على جبل لتصدع، ولم ولن يأتي الإنس والجن بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا، القرآن الذي لم يكن هدى ورحمة للمؤمنين به عند نزوله فحسب، بل كان أيضًا مهيئًا لما بعد عصر النبوة لكي يقص على الناس كافة، وعلى بني إسرائيل خاصة من يهود ونصارى أكثر الذي هم فيه يختلفون حول كل شيء في الوجود: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٧٦- ٧٧]. هذا الذي جعل نعمة الهداية للإسلام من أعظم النعم في الوجود كله، وهي النعمة العظمى التي يشكر بها الله عند الحصول على أعظم جزاء، وهو دخول الجنة، هكذا سيكون حمدهم وثناؤهم على الله عند دخولها: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]. فالحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا كما يحب ربنا، ويرضاه.

إن المجتمع الإسلامي لينعم بوجود مناعة إيمانية متجذرة فيه أكثر من غيره، وقد بلغ بالوحي مبلغًا ساميًا، وارتقى مقامًا معرفيًّا مقدسًا، يصبح فيه الفيلسوف المسلم عزيزًا بين أقرانه، وهو يستدل بنصوص الوحيين، غريبًا خجولًا، وهو يتناول بعض الموروثات الفلسفية من الأمم الأخرى، وإذا ما أراد تسويق شيء منها إلى المحيط الإسلامي، فلا بد له من ممارسة أقصى درجات الحيطة والحذر والمقدمات الدعائية، وما يشبه (التوبة) مقدمًا؛ لأن فطرة الناس من المتانة بدرجة لا تسمح له بالتجديف المطلق، ولا تشعر بالحاجة إلى ذلك، كما هو الحال في البيئات الأخرى التي ينقصها وجود القرآن

الكريم، وليس غريبًا أيضًا أن تجد الشاك أو الملحد من بين المسلمين غالبًا ما يكون مستخفيًا فكريًّا، ومستخدمًا أقصى درجات التقية والتلميح، وذلك لأنه وفي خضم كل جدال فلسفي مجرد، (يَشرَقُ) غرقًا بفرات وعذوبة منطق القرآن العظيم داخل نفسه، فيغرقه بالحقيقة البيضاء الناصعة، وفي الأفق يضيء له وكأنه النهار يتنفس بالضياء ليمحو ظلام الليل يطلبه حثيثًا، فلا يستطيع المجادل تجاوز هذا الحق مهما كان ماهرًا في المناورة، وأنى له بمواجهة قوة هذا الخطاب الرباني: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وإنه مما يحير العقول، ويبهر الأفهام، أن يوجد هذا القرآن العظيم في جميع مراحل تاريخ المعرفة الإنسانية، حاضرًا في كل تحديات الجدل والمنطق، وكما يلاحظ في عصرنا الراهن، وبعد أكثر من أربعة عشر قرنًا من نزوله، نعتمد على نصوصه العظيمة اعتمادًا كليًّا لا بديل عنه، حتى ونحن نكتب هذه اللحظة مقلبين تناقضات آراء البشر وضياعهم الفكري، فكل منبر مهتز، وكل صوت ضعيف، ولا نرى إلا دوحة القرآن ثابتة خضراء مزهرة، نستشهد به كثيرًا، وينهل الجميع من ثمراته، ويستظلون بظله، لقد نزل القرآن مفهومًا ميسرًا لعامة الناس، فهمه الصحابة جميعًا وهم الأميون في علم المنطق وفنون الفلسفة، يتلونه فيستوعبونه بشكل متطابق تمامًا مع فطرتهم السليمة، وكأنه أنزل إليهم وحدهم، بل كأنه خاطب آحادهم كلًّا بشخصه، ثم تتوالى العصور، وتتطور الأفهام والفكر البشري، ثم نكتشف بعدهم بمئات السنين أن النص القرآني الذي نزل على رسولٍ أمي، لم يكن مخصصًا لتلك المرحلة وحدها، بل كان خطابًا عامًّا للعالمين في جميع مراحلهم مهما تقدمت إلى أبد الآبدين: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. إنه يخاطب المختلفين، ويجادلهم بالمنطق القوي السليم في كل حين.

هذا الوصف للقرآن هو الوصف المنصف الذي ربما يقصر عن حقه، وليس حديثًا دعائيًّا للترويج لمجرد أننا مسلمون وهو كتابنا، ولا وعظًا عائمًا نستدر به العاطفة من غيرنا، أو نمرر من خلاله الفكرة المستعصية، وإن كان من حقنا أن نفخر بذلك كل الفخر، ونشكر الله على ذلك كل الشكر، وندعو الناس إلى هذا الحق المبين بعدما تبين لنا،

ولكن تنزلًا عند حجج المجادلين في ديننا وكتابنا، ندعوك يا أخي الباحث عن الحق بكل تجرد، أن تتأمل آياته تأملًا محايدًا جدًّا، وستجد فيه كل ما يتطلبه الحوار والجدل المنطقي في أيامنا هذه والأيام القادمة، وستجد أنه أيضًا محصن بأقوى مقدمات المنطق الصحيح، تنزلًا عند هامش جدالهم وليس لحصر رسوخ الإيمان في أدوات المنطق ومقدماته كلا، فهو كلام الخالق المكتنز بأرقى النتائج المنطقية الصارمة، والجدلية العقلية المسكتة لكل مناوئ للحق.

لم تتبلور أزمة الجدل حول الأزلية وبدء الخلق في عصر قريش، المقرّين بتوحيد الربوبية، وبأن الله خالق الكون وربه الواحد، والمنكرين توحيدَ الألوهية لاتخاذهم آلهة متعددة من دون الله، وهذا ما أكده القرآن العظيم في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥]. بينما نزلت آية سورة الطور: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥- ٣٦]. وكأنها تخاطب قومًا لم يأتوا بعد، قومًا سيعيشون معارك الجدل والمنطق والفلسفة بعد انتقال تراث الفرس والروم إلى بيئتهم، وهو ما حصل فعلًا في العصر العباسي الممتد من ١٣٢هـ إلى ٦٥٦هـ.

*****

الخلاف بين الغزالي وابن رشد

وكما كان الخلاف والنزاع واردًا بين الفلاسفة من غير المسلمين قديمًا وحديثًا، فقد وجد أيضًا بين فلاسفة المسلمين من الخلاف ما يتوقع حدوثه بين أناس يطرحون آراء وأفكارًا ووجهات نظر بشرية من الطبيعي ألا تكون متطابقة، ولنتجاوز خلافًا وقع بين أمثال ابن سينا والكندي والفارابي لشدته ولاختلاف الناس حولهم، ولنتحدث عن تنافر أقرب فلاسفة المسلمين إلى منهج الوحي والسنة، ولنأخذ مثالًا لما دار بين عالمين جليلين هما (أبوحامد الغزالي) و(أبوالوليد بن رشد الحفيد)، فالأول دخل علم الكلام من أوسع أبوابه، وقرأ عن الفلاسفة، وتأثر بهم سلبًا في بداية طريقه، ثم تحول إلى إيجابي

في نهايته، حتى ألف في نهاية المطاف كتابه الشهير (تهافت الفلاسفة)، تعرض فيه لأبرز حججهم ومسلماتهم، ودحضها بأسلوب لا يخلو من حدة، ولم يتردد في تكفير بعضهم، ولم يكن بابن رشد خاصة رفيقًا ولا رحيمًا، فانبرى له (ابن رشد) الذي هو الآخر ممن قرأ، وخاض في بحر الفلسفة والمنطق، وترجم لأرسطو ترجمة لا يزال الغرب يحفظها له، فرد على الغزالي في كتابه الشهير (تهافت التهافت)، مبتدئًا بالقسوة عليه ابتداء من عنوان الكتاب، كما يتضح ذلك، ومستدركًا عليه قسوته عليهم، خاصة عندما تناول الغزالي فلسفة أرسطو مما نقله عنه كلٌّ من الفارابي (المعلم الثاني)، وابن سينا (الشيخ الرئيس)، فقال الغزالي عنهما: «مجموع ما صح عندنا من فلسفة أرسطوطاليس بحسب نقل هذين الرجلين ينحصر في ثلاثة أقسام، الأول: قسم يجب التكفير به، وقسم يجب التبديع به، وقسم لا يجب إنكاره أصلًا، فلنفصل به»[1].

لكن بمجرد تأمل الموقفين بسهولة تدرك أن (الفيلسوف الفقيه) يسلك منهجًا عقليًّا محضًا، وهذا هو حال (ابن رشد) الذي يختلف عن المنهج العقلي المقيد (للفقيه الفيلسوف) مثل (الغزالي)، وما أخذه ابن رشد عليه أنه لم يلزم مذهبًا من المذاهب في كتبه، فهو كما يقول عنه أشعري مع الأشاعرة وصوفي مع الصوفية وفيلسوف مع الفلاسفة، واتهمه بمسايرة عامة الناس ومجاملتهم من خلال تواريه خلف بعض الأطروحات التي كان يهاجم فيها الفلاسفة[2]، ولكنك تدرك أيضًا عدم حاجة الأمة لهذا الجدل الفضولي أصلًا بين هذين العالمين الجليلين، وأن قسوة الغزالي البادئة نتج عنها تطرف من جانب ابن رشد في شخصنة رده عليه، لم يكن الأمر بتلك الأهمية أو الضرورة، بدليل أن الغزالي لم يعرف بكتابه هذا بقدر ما عرف بكتبه القيمة الأخرى مثل (إحياء علوم الدين)، وكذلك الحال مع ابن رشد الذي عرف أكثر بكتابه (بداية المجتهد ونهاية المقتصد)، الذي يُعدّ مرجعًا عالميًّا في الفقه المالكي، أكثر مما عرف بسجاله الفلسفي والمنطقي ضد الغزالي، ذلك السجال الذي بقي محصورًا في نطاق البحوث

(١) أسلمة المنطق الأورغانون الأرسطي بين يدي الغزالي، عبدالكريم عنيات، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م، ص٩٦.

(٢) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، ابن رشد، تحقيق: محمد عمارة، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٤٨م، ص٢٥.

المتخصصة عند أهل الكلام دون غيرهم، وفي مثل هذا البحث الذي قد لا يأبه به عامة الناس المنسجمين بفطرتهم والمحتاجين بدرجة أكبر إلى كتبهما الأخرى، بل لربما جلب الغزالي على نفسه في الخوض في المنطق وعلم الكلام ما هو غني عنه، فقد وصفه تلميذه (أبوبكر بن العربي)[1] بقوله: «شيخنا أبوحامد دخل في بطون الفلاسفة، ثم أراد أن يخرج منها، فما قدر»[2].

*****

ثالثًا: الفريقان لا يستويان

لا يستوي من يحتمي بالوحي، فيطل من نافذته إلى الوجود مهما كان على بصره من غشاوة يمكن إزالتها، بمن هو أعمى في العراء تعصف به الريح من جانب، هنا يكمن الفرق بين فلاسفة المسلمين وغير المسلمين، إذ لا تشكل المناظرات والحوارات الفلسفية أولوية قصوى عند المسلمين، كما هو الحال عند غيرهم، وذلك لعدم الحاجة إلى ذلك علاوة على أن معظم فلاسفة المسلمين على الرغم مما يقال عنهم قد تسلحوا بهذا المنطق القرآني المتين بعد قرون من نزوله، ووجدوا فيه ردًّا مسكتًا لخصومهم عند المواجهة، خاصة وهم ينقلون هذه الآيات عن رسول أمي عاش فقط ثلاثًا وستين سنة، ثم مات كما نموت، أمضى آخر ثلاث وعشرين سنة من عمره مبلغًا لهذا الوحي العظيم، هذا الوحي الباقي إلى الأبد، وسيبقى مكتنزًا بمعانٍ وتحديات كامنة تلمع بإشراقاتها في مواسم الجدل والمنطق والعلم، وقد جُربت منطقيًّا حين ترجمت كتب الحضارات الأخرى إلى العربية، حيث لم يعرف المسلمون الفلسفة أو علم الكلام إلا بعد أن وصلت

(١) هو القاضي أبوبكر محمد بن عبدالله بن محمد بن العربي الأندلسي الإشبيلي (٤٦٨- ٥٤٣هـ) الموافق (١٠٧٦- ١١٤٨م) عالم فقيه تتلمذ على أبي حامد الغزالي ومن أشهر مؤلفاته (عارضة الأحوذي في شرح جامع أبي عيسى الترمذي) و(الأصناف) و(أمهات المسائل) و(نزهة الناظر) ولم يكن على وفاق مع ابن حزم الأندلسي: (سير أعلام النبلاء، الذهبي، الجزء ٢٠، ص١٩٧).

(٢) درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٢٦.

إليهم كتب الرومان وفارس بشكل منهجي وتحديدًا في عهد الخليفة (المأمون)[١]، فاحتاج الأمر إلى توخي الحذر العقدي، فانبرى طائفة من المسلمين لتعلم المنطق بهدف الرد على المنطقيين، فاستحسنوا هذا الأمر، وتبحر منهم من تعمق بالفلسفة أمثال (الكندي)[٢] و(الفارابي)[٣] و(ابن سينا)[٤] و(الرازي)[٥] و(ابن حيان)[٦] و(ابن رشد) وشاركهم في ذلك بعض المفكرين والأدباء (كالجاحظ)[٧]، وعلماء الرياضيات

---

(١) المأمون (٧٨٦- ٨٣٣م) الموافق (١٧٠- ٢١٨هـ) هو الخليفة العباسي عبدالله المأمون بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس أمير المؤمنين وأمه أم ولد اسمها مراجل الباذغيسية دامت خلافته ٢٣ عامًا: (البداية والنهاية، ابن كثير، المجلد الرابع عشر، دار عالم الكتب، ٢٠٠٣م، ص٢١٤).

(٢) هو أبويوسف يعقوب بن إسحاق الكندي (٨٠٥- ٨٧٣م) الموافق (١٨٩- ٢٥٩هـ) يلقب بفيلسوف العرب، وهو العربي الوحيد تقريبًا بين فلاسفة جيله كلفه المأمون بالإشراف على ترجمة الأعمال الفلسفية اليونانية إلى العربية واتخذه الخليفة المعتصم معلمًا لابنه أحمد وله مؤلفات في الفلسفة والطب وعلم النفس والتنجيم: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الثاني، ص٢٩٧).

(٣) أبونصر محمد الفارابي (٨٧٤- ٩٥٠م) الموافق (١٩٠- ٣٣٥هـ) ولد في مدينة وسيج إحدى مدن فاراب وهو ثاني فيلسوف إسلامي ذي شأن في الفلسفة الإسلامية يلقب (بالمعلم الثاني) على أساس أن أرسطو هو (المعلم الأول) ويُعدّ الفارابي من أوسع فلاسفة المسلمين اطلاعًا على الفلسفة اليونانية وهو الذي عرف الفلسفة بأنها (العلم بالموجودات بما هي موجودة) يحب العزلة ويكره مجالسة الناس: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الثاني، ص٩٣).

(٤) ابن سينا (٩٨٠- ١٠٣٨م) الموافق (٣٦٩- ٤٢٩هـ) هو أبوعلي عبدالله بن سينا قرأ الشروح حتى أحكم علم المنطق وقرأ كتاب أصول الهندسة لإقليدس ثم قرأ كتاب المجسطى لبطليموس عن الفلك وبعد أن أحكم المنطق الطبيعي والمنطق الرياضي عدل إلى الإلهي وقرأ كتاب (ما بعد الطبيعة) لأرسطو أربعين مرة - كما حكى ذلك عن نفسه - فلم يفهمه حتى قرأ كتاب (في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة) للفارابي ففهمه وتصدق شكرًا لله على ذلك: (الفلسفة الإسلامة، عباس محمود العقاد، المجلد التاسع، الطبعة الأولى، ١٩٧٨م، دار الكتاب اللبناني، بيروت).

(٥) أبوبكر محمد بن زكريا الرازي (٨٦٤- ٩٢٥م) الموافق (٢٥٠- ٣١٣هـ) اشتهر بالطب حتى لقب (بطبيب المسلمين) له مصنفات في الفلسفة: (معجم الفلاسفة، طرابشي، ص٣١٦).

(٦) جابر بن حيان (٧٢٨- ٨١٥م) الموافق (١١٠- ١٩٩هـ) كيميائي وفيلسوف عربي عاش في القرن الثامن الميلادي نسجت حوله الأساطير نشر ما يربو على ثلاثة آلاف رسالة وكتاب منها كتاب (أسرار الكيمياء) و(ميدان العقل) وهو صاحب مذهب (الميزان) الذي يكشف في كل الجسم الظاهر والباطن ترجمت مؤلفاته إلى اللاتينية، وسمي Geber: (معجم الفلاسفة، طرابيشي، ص٢٥٤).

(٧) الجاحظ (٧٨٠- ٨٦٩م) الموافق (١٦٣- ٢٥٥هـ) هو عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثي الكناني البصري ولد وتوفي في البصرة وهو من أشهر الأدباء في التاريخ العربي وقد ذاع صيته في العصر العباسي: (الجاحظ: حياته وآثاره، طه الحاجري- الطبعة الثانية، ١٩٦٩م، القاهرة، دار المعارف).

(كالخوارزمي)[1]، وبسبب تبحرهم بفلسفة اليونان لم يسلم من شطحات الفكر منهم إلا القليل، والإنكار على عامة الفلاسفة المسلمين كان عنيفًا نظرًا لاقتحامهم هذا الميدان الشائك بعمقٍ نقل بعضهم إلى الإعجاب المبالغ فيه بهذا الفن على حساب بعض ثوابت الأمة التي لا تقبل المساس بها بحال، ونظرًا لغرابة ما تفوه به بعضهم حول الوجود والغيبيات وأزلية العالم وغائيته، فقد أُمطروا بأقصى عبارات الرفض القاسية لما قدموه، واتهموا بالضلال، وأدخلهم بعض منتقديهم إلى دائرة الكفر والإلحاد، ولقد بدر من بعضهم ما يبرر تلك القسوة عليهم، ولكن الإنصاف مطلوب، وهم في نهاية الأمر بشر يجتهدون، فيخطئون ويصيبون، وليسوا محصنين من الزيغ والضلال، وليسوا أنبياء يقتدى بأقوالهم وأفعالهم على إطلاقها، فمن ضل منهم فإنما يضل على نفسه، ولا يضر بضلاله هداية المهتدين إذا اهتدوا بحق[2]، ولا يمكن الإنكار المطلق على بعض العلماء الذين تصدوا بقوة لآراء بعض فلاسفة المسلمين حتى لو وصل الأمر إلى تكفير بعضهم إما بسبب اعتقادهم بقدم العالم، أو لقولهم: إن الله لا يحيط بالجزئيات، أو إنكارهم بعث الأحياء بعد الموت.

لكن جذوة إيمان فلاسفة المسلمين المؤانسة لهم والحاضرة دائمًا في كل منازلة فكرية، لا تقارن أبدًا بذلك الغبش الموحش والجفاف الحاد عند غيرهم من فلاسفة الأمم الأخرى، ويبقى العتب على المسلمين؛ لأنه بمقدورهم بسبب ما عندهم من وحي منزه عن التحريف أن ينشروا الإيمان الصحيح بين الناس انطلاقًا منه، فيقدموا نص الوحي بديلًا عن تخرصات البشر المتناقضة، فيصبحوا بذلك سادة الأمم والحضارات في تناول الغيبيات وحسم الجدل حولها؛ لأنهم أمة القرآن المحفوظ الذي لا يأتيه الباطل من

---

(١) هو محمد بن موسى الخوارَزمي (٧٨٠- ٨٥٠م) الموافق (١٦٣- ٢٣٥هـ) من أشهر علماء المسلمين في الرياضيات والفلك فصل علم الجبر عن الحساب وارتبط اسم ألغورثيم Algoritmi باسمه إلى يومنا هذا نبغ في الرياضيات ليقدم للمسلمين بديلًا عن الحسابات الرومانية المعقدة في الميراث والوصايا وقد عينه المأمون رئيسًا لبيت الحكمة في بغداد أرقى جامعة عربية في وقتها: (مجلة البحوث الإسلامية الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء، المجلد الخامس، ص١٨٦).

(٢) مما لا شك فيه أن غالبية فلاسفة المسلمين قد تأثروا سلبيًّا بما قرؤوه عمن كان قبلهم ويلاحظ أن عناوين كتب فلاسفة المسلمين تعكس أزمة ومعاناة من نوع ما عندهم ومثال ذلك: النجاة الشفاء الإلهيات: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الأول، ص٤١).

بين يديه ولا من خلفه، خلافًا لغيرهم ممن أصبحوا ضحية الدين المحرف والنصوص المتباينة والمرجعية المتعددة، فجميع فلاسفة المسلمين مهما شطحوا بأفكارهم، لم يسجلوا حدة في إلحاد، أو شك أو إنكار بالدرجة التي رصدها التاريخ على بعض الفلاسفة من الأمم الأخرى، ولكن يؤخذ على الجيل الأول من فلاسفة المسلمين كالفارابي وابن سينا والرازي إعجابهم المطلق بالمعلم الأول (أرسطو)، وانجرافهم نحوه على الرغم من إيمانهم بالوحي والنقل الثابت الذي يغنيهم عن كثير مما استدركه عليهم الفلاسفة المتأخرون بعدهم[٣].

ومما يتميز به فلاسفة المسلمين أنهم ينطلقون من منطلقات إيمانية موجهة نحو هدف محدد، تختلف عن تلك السبل المتشعبة التي يسلكها غير المسلمين في كل اتجاه، فالمسلمون يتناولون علم الفلسفة على أنه مساند ومفسر ومبين لبعض الحقائق الثابتة عندهم بالوحي، يقول (ابن مسكويه)[٤]: «إن الإنسان لا يزال يترقى، ويزداد ذكاء وصحة في التفكير وجودة في الحكم حتى يبلغ الأفق الأعلى الذي يصل به إلى إحدى منزلتين: إما أن يديم التأمل في الموجودات... حقائقها... الأمور الإلهية، وهذا دور (الفلاسفة)، وإما أن تأتيه كل الأمور خالصة من الله من غير سعي فيه، وهذا دور (الأنبياء)، بتلقي الفيض منه (أي الوحي)، فإذا التقى من وصل من الأسفل بالتفلسف الصحيح مع من جاء من أعلى بالفيض، اتفق رأيهما، وصدق أحدهما الآخر بالضرورة لاتفاقهما في تلك الحقائق وذلك في الإيمان بوجود الله فقط، ولا يعني هذا تساوي الفيلسلوف بالنبي»[٥].

*****

(٣) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص٥٧.

(٤) هو أبوعلي أحمد بن محمد بن مسكويه الخازن المتوفي سنة ٤٢١ هجرية: (سير أعلام النبلاء، الذهبي، الجزء ٢٠، ص١٩٧).

(٥) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص٦٤.

الفلاسفة والمربع الأول!

هكذا نرى أن الفلاسفة مع اختلاف مشاربهم وأديانهم قد بذلوا كل جهد ممكن للوصول إلى سر هذا الوجود، ولم يتركوا فرصة إلا وحاولوا النفوذ من خلالها مستميتين في فهم وتفسير الوجود ومآلاته وما قبله وما بعده من غيبيات، وجميع تلك الجهود المبذولة كانت ولا تزال تدور في حلقات مغلقة، لم تستطع اختراق حاجز الغيب بحال، بل ولم تصل من سلم المعرفة المتاح للبشرية إلى شيء ذي بال، فكيف بما لا مجال للبشر الوصول إليه، والمحاولات الفلسفية لا تخلو من نزعة غريبة نحو هذا العزوف غير المبرر عن الحقيقة الكبرى والخيار الأوحد في حل لغز هذا الوجود جملةً وتفصيلًا، ماضيه وحاضره ومستقبله، ألا وهي إدراك الحقيقة الفطرية البدهية، التي ترد بين ثنايا مواقف بعض المستبصرين من الفلاسفة، دون أن يعطوها حقها من التوضيح والبيان، إنها فطرة الإيمان بالخالق وحده لا شريك له، التي جاء الوحي كله مسانِدًا لها بقوة، مؤكدًا أن الملاذ هو الفطرة والوحي فقط؛ لأننا بوصفنا بشرًا باختلاف أفهامنا وتباين عقولنا، وقفنا ونقف وسنقف مستقبلًا عند حد معلوم لعقولنا ولإدراكنا وتصوراتنا وخيالاتنا ولا حيلة لنا فيما بعده، وعلينا أن نتواضع من كبريائنا الوهمي أمام أهوال علم الغيب الحقيقية؛ لأننا لا يمكن أن ندرك ما لم نخلق لإدراكه[1]، ولا نتصور ما لم نخلق لتصوره، ولا نتخيل ما لم نخلق لتخيله، ولا نعلم ما لم يكن في مقدورنا العلم به، هكذا قضي الأمر وانتهى، مهما قدمنا من مقدمات، وتمسكنا به من نتائج موهمة، ومهما بلغ بنا الغرور والتعصب، فإن الحقيقة هي أنه هو وحده ربنا، وهو وحده: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦].

إن محصلة العصف الفكري والفلسفي عبر التاريخ، لتؤكد أن العقول الصحيحة عند جميع الأمم والأمصار والحضارات والأديان، تتفق فيما بعد التأمل والتدبر العقلي الخالص من شوائب الهوى، على الاعتراف الصحيح بوجود الله خالقًا ومدبرًا لهذا

(١) يقول الإمام الشافعي رحمه الله: (إن للعقل حدًّا ينتهي إليه كما أن للبصر حدًّا ينتهي إليه): (العقيدة الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ١٣٨٥هـ، ص١٩).

الوجود، وعلى الإقرارالصريح بأنه واحد أحد في ملكه لا ينازعه أحد من خلقه[1]، ويجب أن يكون هذا الإقرار مطلقًا نشعر بوجوبه علينا، سواء أوصلتنا إليه الأدلة الحسية والعقلية أم بقي قدرًا فطريًّا مستقلًّا لا استقرار ولا توازن في وجودنا إلا به.

ومع هذا الإقرار والإيمان، فإننا نعترف بالإجماع أننا لا نعلم عن أي شيء في هذا الوجود أو قبله أو بعده شاء الخالق أن يبقيه غيبًا محجوبًا عنا، ولا يمكن أن نعلمه إلا بإذن من جعله غيبًا عنا، ولا ينكر عاقل أن وجود الموجودات، والإيمان بوجودها، ليس مقصورًا على ما يعلمه المرء عنها، ولا على ما يعلمه البشر مجتمعين، بل ولا على ما يعلمه الخلق أجمعون، أنت لا تحتاج إلى الأشياء المعقدة لتثبت عجزك أمام إثبات الحقيقة ووجودها، عندما تطلب -على سبيل المثال- من إنسان أن يحسب الأعداد تصاعديًّا من واحد وحتى المئة صامتًا، فتتركه وفي أثناء عملية العد وقبل نهايتها سقط عليه جدار، فانتهى أجله، قطعًا هو قد وصل إلى رقم معين (ولنفترض أنه الرقم ٤١)، وهذه حقيقة عنده لو رجعت إليه الحياة لأخبرك عنها، ولكنه فارق الحياة إلى الأبد قبل الإفصاح عن الحقيقة وأنت لا تعلم ولا أحد من الخلق يعلم أنه قد وصل إلى رقم ٤١ عدًّا قبل أن يموت، فهل استحالة معرفتنا بوصوله إلى هذا الرقم الذي وصل إليه، يعني عدم وصوله إليه كحقيقة لا تقبل الجدل عند الذي كان يعدّ الأرقام قبل موته؟ إنها حقيقة حاسمة على الرغم من جهلنا بها تمامًا، وعلى هذا كم ستكون الحقائق الحقيقية في وجودها الغائبة في تصوراتنا!

سيعرف الفلاسفة حجمهم الطبيعي عندما يدركون أن الإحاطة العلمية بالموجودات، وكذا علم الغيب (الميتافيزيقيا)، كل ذلك علم إلهي سري محض، فوق مقدرة استيعاب البشر مهما أوتوا من علم، وهذا الغيب لا طاقة للفلاسفة ولا غيرهم بمعرفته إلا من ارتضى الله من رسول، وكل المحاولات المبذولة لتقريبه أو برهنته بما لدينا من محسوسات ومدركات وقوانين ومنطق، إنما هو عبث بشري وخداع منطقي، وسراب واهٍ، لا يصمد أبدًا أمام ضياء هذه الحقيقة الجبارة: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨] وهذا الأمر المستعصي علينا نحن معشر الخلق، لن يكون كذلك في علم من أوجد هذا

(١) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص١٠٨.

الوجود، وقدر مقاديره، بل هو يسير عليه جدًّا جدًّا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠] وعلى الرغم من هذا العجز والقصور البشري، سيبقى إيماننا بهذا الغيب ضرورة كونية واجبة، وبلسمًا لأمننا واستقرارنا وسعادتنا، وعامل توازنٍ نفسي لا غنى لنا عنه في حياتنا وبعد مماتنا، وهنا يجد الفلاسفة أنفسهم مرغمين للاعتراف بالعجز والرجوع إلى مربعهم الأول (الفطرة) إذا تجردوا من العناد والمكابرة.

أما مصدر معرفتنا بالغيبيات وأسرار بدء الخليقة وانتهائها فهو محصور إما في معلومات فطرية أولية فطرنا الله عليها، وخرجت إلى الدنيا معنا، لا انفكاك بيننا وبينها، وكأنها عضو من أعضائنا، أو يكون المصدر في وحي منزل خاطبنا فيه ربنا بلساننا وبخبر هو أصح الأخبار وأصدقها وأبقاها، ويجب علينا أن نصدقه تصديقًا جازمًا دون تردد ولا تسويف، اقتناعًا به وتعظيمًا لمن أنزله علينا، وفقرًا منا إليه سبحانه، ولعدم وجود البديل المعرفي في علم الغيب مطلقًا، سنسلّم ونستسلم لهذه الحقيقة الإيمانية الكبرى، وسنجد أنفسنا في هذه اللحظات العاجزة أمام القدرة العظيمة لخالقنا، متوجهين إليه بوجوهنا وقلوبنا كما توجه أبونا إبراهيم عليه السلام من قبل، حين قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

إنه لمن الضرورة أن يقال لك: انهض من ساعتك هذه، وصحح مسارك الإيماني، واستقم وتجاوز قضية الفلسفة والمنطق نهائيًّا، ولا تأبه بها ولا بغيرها من جدل البشر، فـ(في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل)، ورتب أولويات وجودك وما بعد موتك بالإيمان الباقي وفق خبر الوحي، فليست الفلسفة بأكثر من كونها فنًّا من الفنون الإنسانية، وضربًا من علم المعرفة العامة، ليست ضرورية ولا مقدسة، ولا ترقي أبدًا لتواجه أيًّا من نصوص الوحي المقدس والمنزل من الله، ولا مقارنة ولا سواء، وكيف تعدل إلى قول البشر عازفًا عن قول رب البشر الذي خلقهم، وخلق عقولهم التي فكروا، وتفلسفوا بها وهو الذي يحييهم ثم يميتهم وإليه النشور، هذا هو الموقف الفطري السليم لكل واحد منا أمام المجادلين، فليكن هكذا موقفك من جميع علوم المعرفة الدنيوية، ومنها الفلسفة، التي إما أن تتبحر فيها لتجد غنمها وخيرها، أو أن

تتركها جانبًا، فإنه لن يفوتك شيء ضروري بتركها، إذ لا يجدي تناوشها من بعيد أو التجول في أطرافها، وتأكد أنها ليست علمًا واجب التعلم، ولا من أركان أو شروط عبادة من العبادات، بل ولا حتى من فروض الكفايات ولا المندوبات ولا من أسباب دخول الجنة والنجاة من النار.

يجب علينا التوجه الفوري إلى الله بعيدًا عن تخرصات الفلاسفة ومنطق المتكلمين، سنتوجه إلى الله منيبين إليه عابدين وساجدين له، جاثين على ركبنا، منكسرين بين يديه، نتضرع إليه، وهو القوي العزيز الذي قدر أن تكون قلوبنا وعقولنا ونواصينا وماضينا وحاضرنا ومستقبلنا وجميع شأننا بين يديه وبيده سبحانه، وحتى هدايتنا إذا اهتدينا فهي منه، وسلامتنا إذا سلمنا فهي منه وإليه وعنده وحده لا شريك له، وبعد أن تبين لنا هذا الحق المبين، فلا حكم إلا حكم الله، ولا صوت إلا صوت الحق ومن نطق به، ولن نسمع ولن نلتفت إلى أي مخلوق ضعيف يحاول صرفنا عن الوحي والفطرة، وهو لا يملك من أمره شيئًا، ولا يغني عنا ولا عن نفسه من الله شيئًا، وسنركع دامعة عيوننا طاعةً وتعظيمًا وإجلالًا لله الواحد القهار متضرعين إليه بقلوب وجلة ونفوس مشفقة وعيون باكية، قائلين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

*****